صندوق الذكريات
رانا محمد صلاح
دار
أكاديمية الكاتب
للنشر الإلكتروني

صندوق الذكريات

مجموعة قصصية

رانا محمد صلاح

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

للنشر الإلكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: صندوق الذكريات

المؤلف: رانا محمد صلاح

تصنيف الكتاب: مجموعة قصصية

تنسيق داخلي وتصميم غلاف: محمود كمال

المقاس ١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 60-19-1-260202

التليفون : ٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

	الفهرس	الصفحة
١	صندوق الذكريات	٦
٢	لقاء بعد غياب	١٢
٣	رسائل الحب الضائع	١٦
٤	فتاة الشقة	١٩
٥	لعنة الانتقام	٢٢
٦	شبان مدينة الموتى	٢٥
٧	ألفة في الظلام	٣٨
٨	بائع الورود والحنين	٤١
٩	انتظار على الشاطئ	٤٦
١٠	حكايات عم حمزة	٤٨
١١	تأويلات لا تخيب	٥٣

إهداء

إلى روحِ أمي الطاهرة الحاجة ماجدة الباهي...

إلى من غابت عن عيني ولم تغب عن قلبي يومًا، إلى دعائها الذي يرافقني، وصوتها الذي ما زال يربّت على روحي كلما تعبت.

هذا الحرف بعضٌ من حنيني إليكِ.

إلى أبي...

الحاج محمد صلاح

بارك الله لنا في عمرك، وأدامك سندًا وظهرًا لا يميل.

إلى إخوتي...

رفقة الروح، وأمان القلب، وشركاء الذاكرة والنبض.

إلى أحبّتي الصغار، روح قلبي ونبضه...

حمزة حازم، محمد حازم، ولمى أسامة

ضحكتكم وعدٌ بالحياة، وبراءتكم أملٌ لا يخيب.

إلى أصدقائي الأعزاء...

الجندي المجهول،

آمنتم بموهبتي قبل أن أؤمن بنفسي، وشاركتموني الطريق حتى كبر الحلم.

وإلى أستاذي الفاضل، ومعلمي المحترم

الكاتب أ. محمود كمال،

عرفانًا بفضلك، وامتنانًا لتوجيهك ودعمك،

كنتَ نورًا في طريق الحرف،

ويدًا صادقة أمسكت بقلقي حتى اطمأن.

صندوق الذكريات

في بيتِ جدّتي، حيثُ شقّتُنا القديمةُ في الطابقِ العُلوي، صعدتُ درجاتِ السلَّم بخُطًى مثقلةٍ بالحنين... وذكرياتِ الطفولة.

فتحتُ بابَ الشقّة، فاندفعَ الغبارُ يخنقُ أنفاسي، كأنَّ المكانَ نفسه يبكي فُقدانَ الأحبّة، كأنَّ الجدرانَ تشكو وحدتَها، وتحِنُّ إلى ضحكاتٍ لم تَعُد تتردّدُ بينها.

تذكّرتُ مقطعًا من أغنيةٍ قديمةٍ للفنان محمد فؤاد:

"خدني الحنين... بعد السنين، جابني هنا، هنا للمكان اللي اتولد فيه حلمنا،

هنا بلقى نفسي... وروحي، هنا ببقى أنا."

وانحدرتْ معها دمعةٌ ساخنةٌ من مقلتي.

تمعّنتُ النظرَ في كلِّ زاوية، وفي كلِّ ركنٍ...

هنا كنّا نضحك، وهنا تشاجرْنا على أشياءَ صغيرة، هنا كانت أحلامُ الطفولةِ تركضُ في الطرقات، هنا جلسَ أبي ذاتَ صباحٍ يتناولُ فنجانَ القهوة،

وهنا... كانت أمي.

بدأتُ أفتّشُ بين أغراضي القديمة، أبحثُ عن شيءٍ نسيته... في الخزينة.

وفي لحظةٍ، ومن بين الغبارِ وتناثرِ الأوراق، لمحتُ ذلك الصندوقَ الخشبيَّ المغطّى بالتراب.

أغرورقت عيناي... إنه صندوقُ الذكريات.

احتضنتُه كأنّي أضمُّ طفلًا باكيًا، يصرخُ من جوعِه وحنينِه إلى صدرِ أمّه،

كأنّي أحتضنُ كنزًا لا يُقدَّر بثمنٍ... فيه ياقوتٌ وألماس، بل ما هو أثمنُ من ذلك بكثير.

فتحته بهدوءٍ، وقلبي يرتجف... كمن يُقبِلُ على معركةٍ من الشَّجن، وإذا بي أجدُ داخله... قلبي، وروحي، وطفولتي.

كلُّ صورةٍ تحملُ ذكرى، تروي قصصًا، وحكاياتٍ، وروياتٍ لم تكتمل.

وقعتُ على صورةٍ لنا، أنا وإخوتي، على شاطئ "عجيبة"، كم كنّا صغارًا!

ضحكاتُنا كانت حقيقية، تعكسُ سعادةً نادرةً بمصيفٍ كنّا ننتظرُه كلَّ عام.

ثمّ صورةٌ أخرى... تجمعني بجدّتي، وخالتي، وخالي، وخالةِ أمي وزوجها، وأمي... أمي الحبيبة.

الشمسُ تبتسمُ فوقنا، والصخورُ تحت أقدامنا تحفظُ داخلَها لحظاتٍ لا تموت.

بدأتُ أبحثُ في الصورِ عن وجهِ أمي، تلك الغائبةُ الحاضرةُ في كلِّ التفاصيل.

حتى وقعتُ على تلك الصورة... التي تجمّد عندها قلبي... وعقلي... وروحي.

صورةٌ جمعتنا في عيد ميلادي، أحملُ فيها تورتةَ الاحتفال، وهي بجانبي...

تُقبّلني، تحتضنني، وتعزفُ على أوتارِ قلبي أجملَ الأمنيات.

في تلك اللحظة... انهمرتْ دموعي كشلالاتِ نياجرا، تسارعتْ دقّاتُ قلبي، وانفجرتُ بالبكاء... لم أستطع بعدها أن أوقفَ نزيفَ الاشتياق إلى حبيبةِ قلبي وروحي وعُمري، إلى حبيبتي... إلى أمي، تلك الغائبةُ الحاضرةُ في كلِّ ركنٍ، وفي كلِّ صورةٍ وذكرى، كلُّ حلمٍ يحملُ معه اسمَ أمي... وروحَ أمي... ونَفَسَ أمي. إنها أمي.

تذكّرتُ رحلةَ الإسكندرية التي قضيناها سويًّا... فكلّما ذُكِرتْ الإسكندرية، تذكّرتُ أمّي.

كلُّ شارعٍ، كلُّ زقاقٍ، كلُّ نَفَسٍ أتنفّسه... له طعمٌ ورائحةٌ تُشبهها.

كلّما مشيتُ في الطُّرقات، رأيتُ وجهَها مطبوعًا على زجاجِ المحلّات، وعلى نوافذِ الشرفات. هنا... كانت أمّي.

هنا مشينا، وهنا تناولنا الطّعام سويًّا، هنا أكلنا الآيس كريم،

وهنا... تعبنا فاسترحنا قليلًا.

في كلّ زاويةٍ من هذه المدينة، تنبضُ رائحةُ أمّي، كأنّ قلبَها ما زال حيًّا...

رغم أنّه توقّف.

لا أعلم كيف، لكنّ الذكرياتَ التي نسجناها معًا حفرتها تلك البلدةُ العجيبةُ في رمالها، وأخفتها في عمقِ أمواجها، فامتزجت ملامحُها بملامحِ أمّي.

على هذا الشاطئ...

رسمنا ذكرياتٍ لا تُمحى، لا تُنسى، تلاعبت أمواجُه بأجسادِنا، فارتسمت الضحكاتُ على صفحةِ الماء.

وهذا المسجد... شاهدٌ على صلواتِنا، على دعائنا، على الخشوعِ الذي جمعنا،

وعلى الليالي التي سهرناها ننتظرُ صلاةَ التراويح، والتسابيح، والتهجّد.

وتلك الليلةُ التي فاتها فيها الدواءُ هي وأبي، حين أذّن فجرُ يومٍ جديدٍ من أيّامِ رمضان لاختلافِ التوقيت، فانفجرت ضحكاتُنا تملأُ الأرجاء.

أمّي الحبيبة، الغائبةُ الحاضرة، في كلّ نَسَمةٍ، في كلّ ركنٍ، في كلّ شُرفةٍ،

كانت ترسمُ البَسمةَ في الأرجاء، وتزرعُ الياسمينَ في كلِّ بقعةٍ تطأُها قدماها.

وأنا الآن...

ما زلتُ أشتاقُ إليها، ما زلتُ أبحثُ عنها في نَسَماتِ البحر، وفي كلّ صوتٍ للموج، وفي كلّ رملةٍ تلامسُ قدمي، وفي كلّ قطرةِ ماءٍ تداعبُ وجهي، وفي كلّ غروبٍ للشمس، ومع كلِّ سطوعٍ للنور... أبحثُ عن وجهِ أمّي.

ثمّ وقعتْ عيناي على صورةٍ تجمعُ أصدقاءَ الطفولة، كم كنّا صغارًا نلعبُ ونلهو،

تتناثرُ ضحكاتُنا في الأرجاء، ونحيا بقلوبٍ هادئةٍ مطمئنّة، لا نعرفُ للأعباء طريقًا،

ولا نحملُ من الدنيا سوى براءتِنا.

كانت تلك أيّامَ الطفولة، نستنشقُ الهواءَ النقيَّ بصدورٍ نقيّة، ونحملُ أحلامًا ورديّة، نظنُّ أنّ الكبارَ أكثرُ راحةً، وأنّنا لا نملكُ الكثير.

لكنّنا حين كبرنا... أدركنا الحقيقة؛ لقد كنّا نملكُ ما لا يملكه الكبار... كنّا نملك راحةَ البال. وكنتُ أملك أمّي.

رجعتُ إلى صندوقِ الذكريات، لتقعَ عيني على صورةِ زفافِ أبي وأمّي.

فانهمرتْ قطراتُ الدمعِ من جفوني، ليسيلَ نزيفُ الماضي في عروقي.

كم كانت ملامحُكِ جميلةً يا أمّي، وكم كان قلبُكِ صادقًا... يحملُ الخيرَ، ولا يُكنُّ الضغينةَ لبني البشر.

كنتِ صغيرةَ الملامح، يشرقُ وجهُكِ بالبراءةِ والصفاءِ والنقاء،

قبل أن تُلقي عليكِ الدنيا غبارَها، وهمومَها، وأعباءَها،

وقبل أن تزرعَ في قلبِكِ أوجاعَها.

كان قلبُكِ صافيًا كصفاءِ اللبن، نقيًّا كنقاءِ العسل.

كم كنتِ جميلةً يا أمّي، قبل أن ترسمَ تجاعيدُ الزمنِ بفرشاتِه الحادّةِ على وجهِكِ الطاهر، وقبل أن يخبو بريقُ مُحيّاك، وتنسجَ الأسقامُ خيوطَها على جسدِكِ النحيل.

كم تمنّيتُ أن تعودي، وأن تعودَ ضحكتُكِ لتدوي في الأرجاء، كم تمنّيتُ أن تنسجي لي مزيدًا من الذكريات، وأن يلمعَ اسمُكِ وصوتُكِ وصورتُكِ في كلِّ ركنٍ من أركانِ حياتي، وأن تبقي بجانبي... إلى آخرِ عُمري. لكنها الحياة.

وما يعزّيني يا أمّي، أنّني رأيتُ ابتسامتَكِ الطاهرةَ قبل الرحيل، ابتسامةً محتْ كلَّ ما نسجتْه الأسقام، لتكونَ آخرَ نظرةٍ منكِ إلى الدنيا، ممزوجةً برياحينِ الجنّة... فهنيئًا لكِ.

وعلى موعدٍ للقاءٍ، يا أمّي الحبيبة، ستبقينَ ما كنتِ، وما زلتِ... حبيبةَ قلبي.

أمّي، يمرّ عامٌ بعد عامٍ وأنتِ لستِ هنا يا أمّي.

أستيقظ كلّ يومٍ فلا أجدكِ، فيصبح يومي باهتًا، وروحي متعبة.

كم أحبّ تلك اللحظات التي أغيب فيها عن العالم، كأنني خرجت من تحت تغطية شبكة رأسي، فيأخذني عقلي إليكِ، ويحدّثني أنكِ تنتظرينني في البيت حتى أعود.

لكن سرعان ما تعود ذاكرتي، لأدرك مرارة الفقدان.

كم ليلةٍ قضيتها أشتاق إلى صوتكِ، إلى قلبكِ، إلى تلك اللحظة الأخيرة التي احتضنتِ فيها جسدي بين ذراعيكِ، وشعرتُ فيها أنكِ أمّي، وأنكِ يقينًا راحلة.

كم تمنّيت أن يطول ذلك الحضن... ذلك الحضن الذي لم يكن عاديًا، فقد احتضنتِ قلبي قبل جسدي، وروحي قبل ضلوعي، ونفَسي الذي ما زلت أتنفّسه الآن بفضلكِ. أذكر ليلة رحيلكِ كأنها بالأمس، أذكر صلواتي ودعواتي من أجلكِ أن يشفيكِ الله وتعودي إليّ سالمة. ورغم يقيني أنكِ بين يدي أرحم الراحمين، لكنكِ أمّي... يا أمّي. أذكر كيف لم أكن أعي معنى الغياب ولا معنى الرحيل، حتى تلك اللحظة التي خرجت فيها خشبتكِ من حجرة نومك، وخرج معها قلبي من داخل صدري. أذكر أنني لم أكن أعي من حولي، رغم أنني لم أفقد الوعي، لكن قلبي وروحي كانا قد رحلا معكِ.

أذكر تلك الليلة التي بتنا فيها وحدنا، بين تلك الجدران التي تنعى رحيلكِ،

وأنتِ لستِ بيننا. أذكر تلك الليلة التي انكشفت فيها الوجوه، وتساقطت الأقنعة،

وبتُّ أرى الحقيقة كاملة، خلف الوجوه الزائفة، وصدورٍ تحمل بداخلها الحجارة لا الأفئدة. أصبحتُ أرى الصديق من العدو، والقريب من الغريب.

وأيقنتُ أنني في الفضاء، أتوسّد الغيوم، وأتلحّف بالسماء، ترشدني النجوم إلى طريقٍ يا أمّي... لم أكن يومًا أعرفه.

رجعتُ من أحلامي وذكرياتي إلى بيتِ جدّتي، إلى تلك الجدران التي خبّأت في ثناياها حكاياتٍ لا تُنسى. أعدتُ الصور إلى الصندوق الخشبي، واحتضنته بين ثنايا روحي، ليعود معي... رفيقًا للحنين.

*** * * ***

لقاء بعد الغياب

ليلى:

وكأنّ الزمان عاد بنا، وانتفضت الحياة فزعزعت قلوبنا. حين التقطت أعينُنا من وسط الزحام، التقطت أرواحُنا قبل أن تنطلق ألسنتُنا. سبقتني نظراتُك، وناديتني باسمي، ذاك الاسم الذي افتقدته منذ أعوام. فسقط صوتُك في قلبي قبل أن يخترق أعماقي.

رأيتك بعد سنواتٍ عجاف، ظننتُ أني وجدتُ للنسيان سبيلًا، لكن قلبي لم ينسَ حتى يذكرك. صوتك، صورتك، حتى ضحكاتي التي كنتَ تنتزعها من أعماقي. نظراتك... تلك التي طالما خبّأت بداخلها الكثير من الكلمات والعبارات... والشوق أيضًا.

رأيتك وأنا على يقين أنك لم ترحم حبي، لم ترأف بقلبي ولا بشقوق فؤادي. رأيتك، وتذكّرت أنك لست لي... لست معي. أصبحت الآن ملكًا لها وحدها، أولادك، وربما فيما بعد أحفادك. أبٌ أنت لذكرٍ وأنثى، ولم يهدك قلبك أن تختار اسمًا على اسمي، أو حتى أول حرفٍ من رسمي، كي تذكرني. ربما خشيتَ أن تنطق اسمي فيفتضح أمر قلبك، وتعود إلى دربي.

لا أعلم لماذا لعب القدر لعبته معنا هكذا، ونسج خيوط الصدفة لتجمع بين قلوبٍ أرهقها الاشتياق، وبعثرتها الأشواق. أيقظ الحنين في قلوبنا، وقرع ناقوس الذكرى في عقولنا، ليعيدنا إلى عالم الذكريات الذي نسجناه سويًا، في يومٍ ما... حيث كنا هناك. أنا وأنت... وحبُّنا الذي لم يُفصح عنه بعد.

رأيتك بعين قلبي الذي ما زال يعشقك، وعقلي يأبى أن ينخدع في سحر اللقاء. لكن قلبي أراد أن يخبرك أنه اشتاق إليك، وأنه لم يعتد غيابك رغم الرحيل الطويل. رأيتك... ورأيت في عينيك اشتياقًا وحنينًا لا ينقطع. سمعتك تقول: «وجدتُ فيكِ شيئًا كنتُ أفقده». أخبرتني أنك تخشى الغرق في بحر عيوني، وأنت لا تعلم أنني قد غرقت في أمواج محبتك.

رأيتك، وكلّي تحسّر أنّي تركتك لقلبٍ لا أملكه. كنتُ أخشى أن أراك وهي معك، كنتُ أختبئ داخل غرفتي، خشيتُ أن تراني فتدير لي ظهرك... فتنصهر روحي. كنتُ طفلة... أجل، كنتُ كالطفلة رغم بلوغي سنّ الرشد. كنت لا أفهم معنى الحب، لا أعرف ما يعنيه، فحببتك دون انقطاع، أحببتك وأنا لا أعلم أنه هو الحب.

دائمًا أشتاق إليك... وأفتقدك. مع كل غروبٍ للشمس أشتاق إليك، ومع كل بزوغٍ للضوء أشتاق إليك، وأنا الآن أشتاق إليك... وأفتقدك. اتّخذتُ منك وطنًا لقلبي، وأسكنتك في داخل أوصالي. ومن بين أشياءٍ وجدت كتابًا أهديتني إيّاه، وجدتُ فيه دفءَ قلبك... ووطنًا بلا عنوان.

كنتُ طفلة حين تخلّيت عن قلبك، رغم أنّي كنت أعلم أنّني أسكنه. كانت خطواتك نحوي جريئة، بريئة، صادقة. حتى إنّ والدتك أحضرتها يومًا لتتعرّف عليّ... وبسذاجتي لم أفهم مقصدك. كنتَ تعرف ما تريد، لكن طفولتي وسذاجتي وخوفي جعلتني أخشى القرب منك. كنتُ أخشى عليك من نبض قلبي! أيُّ جنونٍ هذا؟ أيخشى العاشق على معشوقه من موضعه في عمق صدره؟ أيّ جنونٍ هذا الذي دفعني أن أهرب منك... ولا أهرب إليك؟ أن أخشى أن أكون معك... ولا أخشى أن أعيش بدونك؟

رحلتُ عنك... حتى شققتَ طريقك بدوني، وبنيتَ البيت والسكن لامرأةٍ أخرى من دوني. وكانت لك ثمرات ليست من رحمي، وعيونُ صغارٍ تراها ليست من بحر عيوني. ثم لعبت الصدفة وجمعت بيني وبينك، لتشعل نار الشوق في قلبي وقلبك. وتثور الذكرى، وقد ظننتُ أني ألقيتُ بها خارج دربي. لكنّي اكتشفتُ أنك مرادي، وأنك لم ترحل يومًا عن قلبي. لم أستطع الفكاك من حبك، ولم أجد رجلًا في مثلك. ورغم أنّي أعلم أنّه لا يوجد طريق يوصلني إليك، ولا أنك يومًا ستأتي إليّ... وأنا أعلم أنّك لا تُبالي، رغم أنّي ما زلت أسكن قلبك، وأنني امرأة لا تُنسى.

لكن... لا ندري: أهي صدفةٌ مقصودة من القدر؟ أم فقط لتشعل نيران الذكرى في عقولنا، ولهب الأشواق في صدورنا؟ فافترقنا... وظننا أن الرحيل سيكون سبيلًا إلى النسيان. وظننا أن الحب سينتهي بإشارة الوداع الأخير. لكنّك أبدًا لا ترحل

عني، ولا أرحل من عمق فؤادك. حتى كتبتُ فيك أشعاري، وأنشدتُ معها أنشودة الكتمان.

هيثم:

حبيبتي... هل تعلمين أنني ما زلتُ أهواكِ؟ وأنَّ القلبَ ينفطرُ لرؤياكِ؟ كم من الليالي خَلَت، وكلما خلَدتُ للنوم... أذكركِ، أُناجي صورتكِ في الظلام، وأتوسّد الحنين إليكِ... بانتظام.

فأنا أمام عينيكِ لا أجيد الكلام، أتوه في الدروب... لا أعرف العنوان، أتعثر الخطى، وأتلعثم في الكلام، فأذوب أنا... ويذوب قلبي، يا فتاة الأحلام. لم أستطع النوم في سبات تلك الليلة، بعد أن جمعتنا صدفةٌ تمنّيتها منذ أعوام، بعد سنواتٍ قضيتها أبحث عن نور وجهكِ، حتى أدركتُ أن القدر لعب بنا... فأصابني الخذلان.

كنتُ أفتّش عن وجهكِ الناعم في كل وجهٍ تراه عيناي، وأبحث عن تلك العيون... التي أغرقتني في أعماق أنهارٍ وخِلجان. كم تعصف بنا الأيام إلى شتاءٍ شديد المطر، فتعتبين على فراقٍ رسمه لنا القدر. لكنّكِ لا تعلمين وقع كلماتكِ على نبض قلبي، وأنا بالكاد أسيطر على عنفوان عشقكِ.

أثور ثورتي... فأقبح جماح محبتي، ولا أعرف طريق النسيان. تظنين أن الهروب من بحر عينيكِ خلاصٌ من حبكِ، لكنه عينُ السقوط من آخر سفينةٍ للنجاة. تظنين أن مكانكِ فوق سطح صدري... كيف؟ وقد تربّعتِ على عرش قلبي، وارتسمتِ في جفوني، وفاح عطركِ في أعماق أنفاسي.

وأنا لا أعرف إلى أين تعصف بنا الأحلام. فكان الرحيل عن دربكِ هو الإمكان، كي تهدأ عاصفة الشوق في قلبي، تلك العاصفة الجارفة إلى أعمق الوديان، بعد أن عصفت بي إلى ذكريات الماضي، وعشقي وشوقي إلى عينيكِ... تلك العيون التي سحرتني، أسرتني، وأخذتني إلى عالمٍ بلا أنغام.

كم تمنيتُ أن تكوني صديقتي، حبيبتي، ورفيقة دربي في رحلتي... في كل الأزمان. لكن، اليوم... لا أملك في نفسي مكانًا كي أسكنكِ في وطني، ولا أملك

أن أبوح لكِ بكل ما يكنّه صدري. فأنا الآن... لست وحدي، ولديّ بيتٌ وسكن... وعيون صغار تنتظرني.

افترقنا، وتفرقت دروبنا، لكن ما زالت القلوب تُحيي في داخلها طقوس شوقنا... ومراسم عشقنا. وأنا ما زلتُ... أحبكِ يا حبيبتي.

*** * * ***

رسائل الحب الضائع

الثلاثاء، ٢٠٢٣/١١/١٤ – تمام الساعة الثامنة مساءً

اليوم يا أحمد... ذهبتُ إلى ذلك المطعم الذي كان شاهدًا على حبّنا. جلستُ على الطاولة نفسها، أحتسي فنجان القهوة، وأتأمّل الوجوه من حولي، أبحث بينها عن ضوء عينيك... عن تلك النظرة التي كنتَ تمنحني إيّاها، النظرة التي أشتاق إليها أكثر مما أحتمل وصفه. نعم... أعترف الآن. لم أنسَكَ، ولم يخبُ حبّك كما ظننتُ يومًا. توهّمتُ أنّني تخلّصتُ منك... من حبّك، ومن نيران الشوق إليك، لكنّ قلبي لم يفعل. ما زلتُ أحبّك يا أحمد، وما زلتُ أذكرك. وها أنا أعود إلى المكان نفسه، بعينٍ ملهوفة، وقلبٍ مرهقٍ لا يعرف طريقًا إلا إليك. لقد أحببتك كثيرًا... أكثر ممّا توقّعتَ أنت، وأكثر ممّا ظننتُ أنا.

تذكّرتُ ذلك اليوم الذي انتظرته لياليَ وأيامًا... يوم لقائك يا أحمد. حين وصلتُ إلى مكان لقائنا، صعدتُ درجات السُّلَّم أحمل معي دقّات قلبي المتسارعة وكثيرًا من الأشواق المؤجَّلة. بحثتُ عنك بعينيّ حتى وجدتك جالسًا إلى طاولتنا، وما إن اقتربتُ منك حتى امتلأت شفتاك بابتسامةٍ أزهرت قلبي. وقفتَ لاستقبالي، وأجلستني على الكرسي المقابل لك. استرقتُ النظر إلى عينيك للمرة الأولى؛ عبر بصري عدسات نظارتك ليستقرّ في حدقتيك، فأصابني سحرهما. لم تشبها البحار ولا الأنهار، بل كانتا كأغصان غاباتٍ استوائيةٍ امتلأت أوراقها بقدوم الربيع. خُضرتهما دفعتني لأن أتمتم: سبحان الخالق المصوِّر المبدع. وجدتُ نفسي أتسلّق أغصانهما، غائبةً عن الوجود، أسمع تغريد البلابل فوق الغصون، وكأنّ العالم كلّه انكمش داخل تلك العينين.

ثم سقط بصري على كفّيك، ولا أعلم كيف قاومتُ مغناطيس جاذبيتهما. حدّثتُ كفّي، بخجلٍ وحزم، ألّا تحتضن كفّك، وناشدتُ أطراف أصابعك أن تتجاوز كل السدود وتعتصر كفّي. كم تمنّيتُ أن تسرقني معك إلى عالمٍ من الأحلام... عالمٍ لا يسكنه سوى أعيننا وقلوبنا، بعيدًا عن كل ما سواهما. لكنّنيَ الآن... أجلس هناً وحدي، على طاولتنا. أناشد الضوء أن يرسم لي ملامح وجودك، ولا يجيبني سوى الفراغ.

قد تكون منزعجًا من تلك الليلة... الليلة التي أفرغتُ فيها غضبي عليك حين أهملتك. كنتُ غاضبة، لأنك قبلها جرحتني وقتلت قلبي بكلمة، وكنتُ ـــبعجزي وضعفيـــ أحاول أن أردّ الصفعة صفعتين. بعدما جئتُ إليك في ذلك اليوم، إلى مكان عملك، غلبني الشوق إليك. جئتُ أبحث عن دفء حضورك، علّك تُطفئ نار الانتظار... لكنّك كنتَ قاسيًا، كأنّ قلبك تحجّر فجأة. كنتَ تعلم كم أحبّك، ومع ذلك كانت كلماتك سهامًا اخترقت أعماقي. لماذا فعلتَ بي هذا يا أحمد؟ ماذا فعلتُ لأستحقّ كل هذا؟ كيف استطعتَ أن تدهس كرامتي وتمزّق روحي بذلك البرود؟ كنتُ أغرق في بحر غرامك، أذوب في وجودك، وأنتَ كنتَ تُلوِّعني في كل مرة قبل أن نلتقي. ومع ذلك... كنتُ أنتظر. دائمًا كنتُ أنتظر.

وحين قرّرتُ أخيرًا الرحيل... جئتَ تعترف بحبّك واشتياقك. جئتَ متأخرًا جدًا، بعد أن نزعتَ نفسك من قلبي عنوة، وبعد أن تجرّعتُ مرارة الألم وحدي. ثم رحلتَ غاضبًا... كأنّها كانت فرصتك الأخيرة للرحيل بلا عودة، وكأنّي لم أكن يومًا جزءًا من حياتك. واليوم... بعد مرور ثلاثة أعوام على الفراق، أعود إلى المكان نفسه، وقلبي البائس لا يزال يبحث عنك... لكنّك أبدًا لن تعود.

الثلاثاء، ٢٠٢٣/١١/١٤ – تمام الساعة التاسعة مساءً

ميلا... قرأتُ كلماتك مرارًا، وفي كل مرةٍ أشعر بثِقَلٍ على قلبي... وبثِقَلٍ أكبر على روحي. لم أكن أعلم أنني جرحتك بهذا العمق، ولم أدرِ أن صمتي وبرودي كانا سهامًا استقرّت في قلبك. كل يوم بعد رحيلك، كنتُ أتذكّر ضحكتك، نظراتك، وحتى كفّك الذي لمستُه ولم أمنحه حقّه من الحنان. حاولتُ كثيرًا أن أبرّر لنفسي، لكن لا شيء يبرّر القسوة التي صنعتُ بها المسافة بيننا.

ميلا... لم أنسَك يومًا. في كل لحظةٍ بعد الفراق، كنتُ أبحث عنك في وجوه الغرباء، عن ضوء عينيك، عن تلك العيون الزرقاء التي أطاحت بقلبي وانتزعت الراحة من صدري، عن ذلك الحنين الذي يقتلني ويُبقيني حيًّا في الوقت نفسه. كنتُ أخاف أن أُظهر ضعفي، أو أن أبدو غير جديرٍ بحبك، فأخطأتُ... وأعلم أن الاعتذار لن يمحو كل هذا الألم، لكنّي أريدك أن تعرفي أن قلبي لم يرحل معك، وأن حبّي لك ظل حيًّا طوال هذه السنوات. لو استطعتُ أن أعود بالزمن، لأمسكتُ بك قبل أن يغلبنا الغضب، قبل أن أرتكب خطأً واحدًا في حقك ـــ ولو دون قصدٍ منّي ـــ قبل أن يبتعد قلبك عنّي.

ميلا... أعرف أنك تبحثين عنّي اليوم، وربما لم تجدي إلا خيبة الانتظار. لكنّي هنا... أعترف بخطئي، وأعترف بحبّي، وأتمنّى لو كان الزمن كريمًا بما يكفي ليمنحنا فرصةً أخرى... ولو للحظةٍ واحدة فقط. كنتِ دائمًا أغلى ما أملك... وما زلتِ. — أحمد.

وهنا... اختارت ميلا الصمت. ليس لأن الكلمات نفدت، بل لأنّها قالت كل شيء من قبل... ولم يُنقذها شيء. أغلقت الهاتف بيدٍ ثابتة، وتركت فنجان القهوة يبرد كما بردت الذكريات. لم تبكِ، لم تبتسم، لم تكتب حرفًا واحدًا. فهمت أخيرًا أن بعض الاعترافات تأتي متأخرة لدرجة أنّ الردّ الوحيد العادل عليها هو الصمت؛ صمتٌ لا يحمل قسوة، ولا انتقامًا، بل نضجًا مؤلمًا. نهضت من على الطاولة، لم تلتفت للخلف، وتركت المكان شاهدًا أخيرًا على حبٍّ عاش في القلب... ومات في التوقيت الخطأ. وكان الصمت... قرارها الأخير.

*** * * ***

فتاة الشقة

في مساء يوم الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٩٨، ومع إقبال الظلام، بدأت أول ليلةٍ لي في تلك الشقة التي استأجرتها بنصف ثمن الشقق المجاورة. لم أسأل كثيرًا عن السبب؛ كنت أبحث فقط عن مكانٍ أختبئ فيه من ضجيج العالم. وبينما كنتُ أرتّب حقيبتي، اهتز المكان هزّةً خفيفة مفاجئة استمرت لحظات، ثم هدأت. اعتقدتُ أنه زلزال عابر، فلم أُبالِ. كان الجو شديد البرودة، وأوراق الشجر تزفزف بالخارج، بينما يلف الصمت أركان الشقة.

انتفضتُ من مكاني حين سمعت صوتًا مفاجئًا من الغرفة المجاورة، وفي اللحظة نفسها انقطعت الكهرباء. من أين أتى الصوت؟ ومن صاحبه... وأنا هنا وحدي؟ تحركتُ في اتجاهه، أتحسس الجدران بحذر. نظرتُ إلى الغرفة المجاورة، ورغم الظلام استطعتُ تمييز ملامحها... لا أحد هناك. لكن... نافذتها كانت مفتوحة على مصراعيها. اقتربتُ لأغلقها، محدثًا نفسي: لا بد أن الرياح الشديدة هي السبب... محاولةً تهدئة توتري. وقبل أن أغلقها، ألقيتُ نظرة إلى الخارج؛ الشارع غارق في صمتٍ موحش، خالٍ تمامًا من أي وجودٍ بشري أو حتى حيواني. أغلقتُ النافذة، ثم التفتُّ أبحث عن شمعة تُضيء تلك العتمة الدامسة.

تحسستُ الأثاث بحذر... وما إن وصلتُ إلى باب الغرفة حتى سمعتُ صوتًا من خلفي. التفتُّ بحركة لا إرادية... كانت تقف خلفي مباشرة. وفي لحظةٍ خاطفة، احتضنتني. اعتصرت ضلوعي، تسارعت دقات قلبي، وانتصبت كل شعرة في جسدي. همست في أذني: ـــ مرحبًا بك يا سامح... أنا حبيبتك، سلمى. أفلتُّ نفسي من بين ذراعيها وتراجعتُ خطوة إلى الوراء. قلتُ بصوتٍ مرتجف: ـــ اتركيني... أنا لا أعرفك. كيف دخلتِ إلى هنا؟ نظرت إليّ بنظراتٍ حادة، ثم قالت: ـــ سامح... أنت هنا من أجلي. ابتعدتُ خطواتٍ أخرى، أصرخ: ـــ من أنتِ؟! أنا لا أعرفك! كيف تجرؤين على الدخول إلى بيتي دون إذني؟!

اقتربت مني ثانية، لامست وجهي بأصابعها الباردة، وهمست: ـــ أنت الآن مِلكي يا سامح. تخبطت خطواتي، وقلتُ بارتباك: ـــ كيف دخلتِ إلى هنا؟! أجابتني بنبرةٍ مريبة وهي تحدق في عينيّ: ـــ إنه بيتي... وأنت جئت اليوم من أجلي. صرختُ منفعلاً وقد ابتعدتُ للخلف: ـــ ماذا؟ بيتك؟! لقد استأجرتُ هذه الشقة اليوم! ابتسمت ابتسامةً حانية وقالت: ـــ لا تنزعج يا سامح... فأنا حبيبتك. صرختُ بأعلى صوتي... لكنني لم أسمع لصدى صوتي أي أثر.

في تلك اللحظة، دقَّ جرسُ الباب، فتلاشت معها تلك الفتاة كما لو لم تكن موجودة من الأساس. أسرعتُ نحو الباب، ألهث، فإذا به بوّاب العمارة يقف أمامي، يحدّق في وجهي قبل أن يسألني عن الإيجار. سألته بريبة: ـــ من تلك الفتاة؟ تجهم قليلًا وقال: ـــ أيُّ فتاة؟ ـــ لا أعرفها... قالت إن اسمها سلمى. حدّق في وجهي لحظةً أطول من اللازم، ثم تمتم: ـــ أممم... استقبلتك بتلك السرعة؟ ـــ ماذا تقول؟ ماذا يعني ذلك؟ هز رأسه سريعًا: ـــ لا شيء... لا شيء. ـــ كيف لا شيء؟ من هي سلمى؟! تنحنح بضيق وقال: ـــ يا أستاذ، أنا جئت من أجل الإيجار. صرختُ بعصبية: ـــ أجبني! من هذه سلمى؟! خفض صوته، واقترب قليلًا، ثم قال: ـــ صاحبة الشقة... التي قُتلت منذ عام.

تجمد الدم في عروقي: ـــ ماذا؟! قُتلت؟! أعاد كلمته ببرود: ـــ الإيجار يا أستاذ... ارتجف جسدي كله، وقلتُ بصوتٍ متحشرج: ـــ إيجار؟! أنا... يستحيل أن أسكن هنا ليلةً واحدة! تراجعتُ خطوة، ثم أخرى، كأن الأرض تنسحب من تحت قدميّ. قلتُ له متوعدًا: سوف أبلّغ عنكم، وسوف أهدم الدنيا فوق رؤوسكم! أخذتُ حقيبتي، وركضتُ مسرعًا.

اندفعتُ خارج البناية، أهبط الدرج متعثرًا، أحمل حقيبتي كمن يحمل حياته بين يديه، وألتقط أنفاسي المتقطعة. وكأن السكون يعبث بقلبي. لا عابرون، لا سيارات، ولا حتى مواءُ قطٍّ ضال. سكونٌ ثقيل، كأن المدينة بأكملها قد أُفرغت من الأرواح. رفعتُ بصري نحو البناية بلا وعي... فتجمّدت الدماء في عروقي. نافذة الشقة كانت مضاءة، رغم انقطاع الكهرباء. ثبتُّ مكاني، أحدّق في الضوء الأصفر الخافت، حتى لاح ظلٌّ خلف الزجاج. تقدّم الظل ببطء، وتشكّلت الملامح... إنها هي. سلمى.

ابتسمت، ابتسامة هادئة، كأنها لم ترهبنى قبل لحظات. رفعت يدها، ولمست الزجاج من الداخل. ثم سمعتُ صوتها، واضحًا، قريبًا: ـــ لن أتركك ترحل يا سامح... ألم أقل لك إنك جئتَ من أجلي؟ وضعتُ يديّ على أذنيّ، وأغمضتُ عينيّ، وأخذتُ أردد: « أنه كابوس... أنه كابوس...» ثم فتحت عينى... فلم أعد أرى البناية، ولا الشارع، ولا أي ضوء.

كانت سلمى تقف أمامي، قريبةً جدًا. وعيناها... جاحظتان، تشعّان حرارةً، وتتلونان بلونٍ أحمرَ ناريّ. ارتجف قلبي بين ضلوعي، وأدركتُ حينها أنني واقعٌ لا محالة. اقتربت منّي، واحتضنتني بعنفٍ هذه المرّة. همست في أذني بصوتٍ حازم: ـــ أنتَ ملكي يا سامح... لن أتركك ترحل. تجمّد الزمان من حولي. حاولتُ الصراخ، لكنني لم أسمع صدى صوتي، كان فمي يتحرّك... بلا صوت. أدركتُ معها أنني لم أعد أملك نفسي بعد الآن.

*** * * ***

لعنة الانتقام

بينما كنتُ أسير في طريقي إلى المنزل بعد يومٍ شاقٍّ قضيتُه في المشفى، ظلّت تفاصيل ذلك اليوم المظلم تُطاردني. الحالات كانت شديدة الصعوبة، لم يسبق أن واجهت مثلها من قبل. فمنذ المساء ونحن نعيش تحت وقع جريمةٍ بشعةٍ ارتُكبت في مشفى الأمراض النفسية. إحدى المريضات تمكّنت بطريقةٍ غامضة من التسلّل إلى غرفة العلاج، وبسكينٍ جراحيٍّ حاد، باغتت إحدى الممرّضات فقطعت لسانها. لا أحد يعلم كيف دخلت، ولا كيف لم يلاحظها أحد. كلّ الشكوك اتجهت نحو فتاةٍ واحدة، هي نفسها التي اعتادت أن تسير أثناء النوم. لم يكن هناك دليلٌ قاطع ضدّها، لكن الممرّضات جميعهنّ شهدن بأنها دائمًا ما تُثير المشاكل، وأنها لا تتوقف عن تهديدهن قائلةً: "سأقتلكن جميعًا في المساء." وفي الصباح كانت تضحك ضحكاتٍ هستيريةً مرعبة، فأمرتُ بنقلها إلى غرفةٍ خاصةٍ محكمةِ الغلق، ووُضع حارسان أمام الباب لمراقبتها. لكن... ذلك لم يُطمئن قلبي.

كان ذلك قبل أن أراجع تسجيلات كاميرات المراقبة لأتحقّق من الواقعة... وحين بدأت اللقطات بالعرض ـــ كانت الكارثة. فبحلول الليل، وحين خمدت الأصوات، وخُفّضت الأضواء، وخفَتَت الأجواء، تسلّلت بخطى خفيّة، كأنها ظلّ يتسكّع في العدم. عينُها تترقّب، وشرارةُ الانتقام تشتعل في حدقتيها. أسدلت شعرها، فبدت كجنيّة خرجت للتوّ من عالمٍ لا تراه أعين البشر. وفي ملابسها المهترئة، بالكاد بدا بياض قميصٍ غمره الاتّساخ. تمادَت في العتمة، وانزلقت على درجات السلم كأفعى تبحث عن فريستها، وتسلّلت بين الحجرات في الطوابق السفلية، تقودها رائحة الانتقام... حتى اصطادت فريستها بعينيها.

هناك، على سريرٍ تنبعث منه رائحةُ المطهّرات الممزوجة بالدم، كانت ماريا مستلقيةً في غفلة، داخل غرفةٍ تُشبه مستودعًا مهجورًا أكثر من كونها حجرةَ علاج. اقتربت عزيزة منها على أطراف أصابعها، كلّ خطوةٍ كانت تنهش الصمت، تُشبه انزلاق نصلٍ في لحمٍ ساكن. وما إن أصبحت بمحاذاتها... حتى

وقعت الفريسة في قبضتها. أمسكت برأسها بعنف، قبضت على خصلات شعرها المتناثرة، ثم نظرت إليها بعينين جاحظتين، حمراوين كالجمر. قالت بصوتٍ خافتٍ، يقطر حقدًا: "تستحقين أن أسحقك تحت قدميّ... لكن هذا لا يكفي. سأُخرج أحشاءك، وأقطع لسانك ـــ ذلك اللسان الذي طالما وددتُ بتره! ظننتِ أنني قضمةٌ سهلة... أنني أسامح على ترشّقاتك السامّة. لكنكِ الآن... في قبضتي!"

حاولت ماريا الإفلات، لكن قبضتها كانت من حديد. همّت بالصراخ مستنجدةً... لكن عزيزة باغتتها. التقطت سكينًا من على الطاولة، ثم، كوحشٍ التقى بفريسته، انقضّت عليها... قطعت لسانها، ثم انهالت بطعناتٍ متكرّرة في خاصرتها، حتى تناثرت الأحشاء، وتحوّلت الغرفة إلى بركةٍ من الدماء. انفجرت ضحكاتُ عزيزة، مجنونة، صاخبة، مدوّية. ثم رمَت بجسد ماريا على الأرض، وغادرت تتهادى بخطًى واثقة، كأنها لم تقتل لتوّها، بل أنجزت عملًا مقدسًا. صعدت بعدها إلى الطابق الخامس ـــ إلى غرفتها ـــ كأن شيئًا لم يكن. تركت وراءها صدى صراخٍ لم يُسمَع، ودماءً لم تزل دافئة.

ظللتُ أحدّق في الشاشة طويلاً بعد أن انتهى التسجيل. لم أدرِ: هل ما رأيته جنونٌ أم حقيقة؟ كانت ضحكتها ما تزال تتردّد في أذني، كأنها خرجت من وراء الجدار لا من الكاميرا. شعرتُ بأن الهواء يثقل صدري، وبرودة غريبة تسري في أطرافي. تساءلتُ: هل تلك النظرة الأخيرة في الكاميرا كانت نحوي؟ أم أنّها كانت تعرف أنّني أراقبها؟ تملّكني خوفٌ لم أعرف له سببًا، كأنها زرعت حضورها في أعماقي قبل أن تُحبَس في الطابق الخامس. فلا يسعني إلا أن أبلغتُ الشرطة لاحتجازها والبتّ في الأمر.

وبينما كنتُ أقود سيارتي عائدًا، توقّفت المحركات فجأة. لا أعلم ما الذي حدث بالضبط. حاولت تشغيل المحرك كثيرًا، لكن دون جدوى. لمحتُ لمعةَ عينين جاحظتين في مرآة السيارة الخلفية، كأنهما كشافان ينبعثان من جمجمةٍ خاليةٍ من الحياة. اختفت سريعًا، فاعتقدت أنه خُيّل إليّ، فلم أُعطِ الأمر أهمية. كان الظلام دامسًا بعد أن أطفأت أعمدةُ الإنارة جميعها في وقتٍ واحد. ترجّلتُ مسرعًا، رفعت غطاء المحرك لأفحصه، وإذا بصوتٍ غامضٍ خلفي. استدرتُ، لكن المكان كان

خاليًا. بدأ المطر يهطل بغزارة، وقميصي التصق بجسدي. حاولت إصلاح السيارة بلا جدوى، حتى سمعتُ وقع خطواتٍ يرافقها همهماتٌ غريبة لم أفهمها.

التفتُّ مجددًا... كاد قلبي أن يتوقف، والدم يتجلّط في عروقي. إنها هي! إنها هي! صرختُ بأعلى صوتي: "ماذا تريدين؟! لم أفعل لكِ شيئًا!" كانت عيناها حمراوين تتوهجان كأنهما جمرتان تشتعلان. اقتربت بخطواتٍ بطيئةٍ مخيفة. لم أتمالك نفسي، فانطلقت أركض بكلّ ما أوتيت من قوة. أركض بين الأشجار العالية، المطر يجلد وجهي، ألهث وأنا أسمع وقع خطواتها خلفي. حاولت الاختباء لكن دون جدوى، فالأشجار عالية، وهي تسير خلفي بخطواتٍ أسرع من خطواتي. وفجأة... تجمّد كل شيء. سكت المطر، حتى أنفاسي تجمّدت في صدري، سكتت خطواتي، وسكت قلبي معها. غير أنّ ضحكتها الهستيرية ظلّت تملأ الغابة... حتى بعد أن خيّم الصمت الأبدي.

*** * * ***

" شبان " مدينة الموتى

في زمانٍ لا يشبه زماننا، ومكانٍ لا تُحدِّده خرائط البشر، وُجدت مدينة غريبة؛ قيل إنها تحت الأرض، أو فوق الجبال، أو في أعماق البحار... ولا أحد يعلم على وجه اليقين.

مدينة بدأت فيها الأرض تلفظ موتاها. ما إن يُهال التراب على الجثة، حتى ترتجف الأرض وتُخرجها ثانية، كأنها ترفض حمل ثقل الموت.

لم تكن مدينة واحدة فقط، بل مدنًا كاملة أصابها هذا الجنون، حتى لم يبقَ موضعٌ لدفن ميت. إلا مدينة واحدة... مدينة شبان.

أرضها وحدها كانت تقبل الموتى. لا تلفظهم، لا تعترض، كأنها رحيمة وسط عالمٍ قاسٍ. فحملت إليها المدن المجاورة جثثها، ودُفنت فيها قتلاها، حتى تغيّر اسمها مع الوقت، وصارت تُعرف همسًا وعلنًا بـ مدينة الموتى.

لكن الرحمة... كانت خدعة. فالليل في مدينة شبان لم يكن ليلًا عاديًا. مع أول خفوتٍ للضوء، كانت الأرض تتنفس... ثم تتحرك. تتشقق القبور، وتخرج الجثث واحدةً تلو الأخرى، تنهض ببطء، بعيونٍ فارغة، وذاكرةٍ ممتلئة بالظلم.

لم تكن عشوائية. كل جثة كانت تعرف طريقها. تتسلل في الظلام إلى المدن المجاورة، تبحث عمّن قتلها، أو خانها، أو كان سببًا في موتها. وحين تجده، تمتص دمه حتى آخر قطرة، ثم تحرق جسده، حتى لا يبقى منه شيء يُدفن... فلا يعود، ولا ينتقم.

وتكرّر الأمر ليلًا بعد ليل، حتى تعلّم الناس قاعدةً واحدة: من مات ظلمًا... عاد لينتقم.

وبعد أن عمّت الفوضى في كل أرجاء المدينة، ركضتُ مسرعًا خوفًا من أن يصل إليّ ذلك الوحش الذي ظهر فجأة بعد أن تسرّب إلى مدينتنا. قيل إنه جاء من مدينة الموتى... مجرد ذكر الاسم جعل قلبي يرتجف.

اختبأتُ خلف سورٍ عالٍ، ألهث، وأُحدّث نفسي بصوتٍ مرتعش:

ماذا لو رآني؟ ماذا سيفعل بي؟

تخيّلته ينهال على رأسي بمطرقته الحديدية، يحطّم جمجمتي الصغيرة، يكسر عظامي واحدةً تلو الأخرى.

رأيت نفسي ملقى على الأرض، عيناي جاحظتان، الدم يسيل من أعلى رأسي، وجسدي مشوّه... بلا حياة.

قطع تلك الصور صوتٌ أعرفه جيدًا.

— «زيد! اركض فورًا! لديّ مكان يمكننا الاختباء فيه!»

كان فارس صديقي.

لم أفكّر. لم أسأل. ركضت خلفه بكل ما تبقّى فيّ من قوة، لا أتمنى شيئًا... سوى ألا يلحق بنا ذلك الشيء.

أخذني فارس إلى إحدى زوايا المدينة، مكانٍ ضيّق تختبئ فيه الأرواح قبل الأجساد. كانت هناك امرأة، يرتسم الذعر على وجهها بوضوح، تحتضن طفلها بين ذراعيها، تضغطه إلى صدرها كأنها تحاول إخفاءه داخلها، تخشى أن تلتقطه عين ذلك الوحش، فيهوي عليه بمطرقته... فتتحوّل صرخته إلى صمتٍ أبدي.

وعلى الأرض، عند الحائط المقابل، جلست امرأة أخرى. لم تكن تختبئ... كانت منهارة. تحتضن شابًا في العشرين من عمره، الدماء تسيل من رأسه بلا توقّف، وجهه شاحب، وعيناه نصف مفتوحتين، كأنهما عالقتان بين الحياة والموت. كانت تبكي، لا... كانت تصرخ. صرخاتٍ تمزّق القلب، تخترق الجدران، وتفضح المكان.

حاول فارس إسكاتها، أشار إليها برجاء، لكنها لم تكن تسمع أحدًا. كانت تعرف... أن الوحش سيأتي، وأن ابنها... لن يهرب هذه المرة.

ساد الصمت فجأة. صمتٌ ثقيل، كأن المدينة حبست أنفاسها. من بعيد... لم نرَ شيئًا واضحًا، لكننا شعرنا به. توقّفت الطيور عن الصراخ، وتجمّد الهواء، وسقط ظلّ طويل على أطراف الزقاق، ظلّ لا يشبه ظلّ إنسان.

شدّت المرأة طفلها أكثر إلى صدرها، وضمّت رأسه بيدٍ مرتعشة، كأنها تحاول أن تُخفيه عن عينٍ لا تُرى. همس فارس بصوتٍ بالكاد يُسمع:

— «إنه قريب...»

رأس الشاب العشريني الذي كانت المرأة تحتضنه ارتدّ بعنف، وسكن جسده فجأة، كأن الروح خرجت منه في تلك اللحظة. تجمّد صراخ أمه في حلقها، تحوّل إلى شهقةٍ مبحوحة، ثم انحنت عليه، تغطي وجهه بيديها، كأنها تحاول إعادته إلى الحياة بالقوة.

لم أستطع النظر أكثر. أحسست بالغثيان، وبرجفةٍ شلّت قدميّ. ثم... سمعنا الصوت. خطوة. ثم أخرى. بطيئة... ثقيلة... تقترب. ارتطام المعدن بالأرض، يتردّد صداه في الأزقة الفارغة.

أمسك فارس بذراعي بقوة، وعيناه مثبتتان في الظلام أمامنا. حين اقترب أكثر، انكشفت الحقيقة التي تمنّيت لو لم أرها. لم يكن له رأس. كان الجسد يسير وحده، عريض الصدر، متمايل الخطوات، والدم المتيبّس يلطّخ عنقه المقطوع، حواف اللحم سوداء كأن الزمن أكلها ببطء.

أما الرأس... فكانت في يده الأخرى. يمسكها من شعرها المتشابك، تتدلّى وتضرب فخذه مع كل خطوة، وعيناها مفتوحتان. مفتوحتان أكثر مما ينبغي. لم تصرخ، لم ترمش، لكن شفتيها كانتا تتحرّكان، احتكاكًا جافًا، متقطعًا، كصوت عظامٍ تُطحن في الظلام.

تك... تك... تك... صوت الرأس كان أوضح من وقع خطواته. فهمت حينها لماذا لم نسمع أنفاسه. لم يكن بحاجةٍ إليها. المطرقة في يده الأخرى، والرأس المقطوعة كانت تلتفت ببطء، كأنها تبحث، كأنها تشمّ الخوف.

ثم... توقّف الاحتكاك. شعرتُ— لا، تيقّنت— أن عينيها استقرتا عليّ.

لم ينطق اسمي، ولم ينظر نحوي ثانية. انخفضت الرأس المقطوعة قليلًا، وعاد الفكّان إلى احتكاكهما البارد، كأنها فقدت الاهتمام تمامًا.

صوت تك... تك... خرج جافًا، بلا انفعال، ثم تحرّك الجسد من جديد. خطوة واحدة، ثم أخرى، والمطرقة تُسحَب على الأرض خلفه، تترك خطًا معدنيًا طويلًا يشبه جرحًا مفتوحًا في قلب الزقاق.

مرّ الوحش بجوارنا قريبًا إلى حدٍّ شعرت معه أن العفن تسلّل إلى صدري. كانت رائحة ترابٍ قديم، تراب لم تلمسه الشمس يومًا، رائحة المقابر حين تُفتح ظلمًا. حبست أنفاسي حتى كاد صدري ينفجر، وشعرت أن دقّات قلبي أعلى من قدرتي على إخفائها، لكن الوحش لم يتوقّف. أدركت حينها أنه لا يبحث عنّا... بل عن شخصٍ آخر.

توقف فجأة، ثم رفع المطرقة وضرب بها الحائط المقابل. دوّى الصوت في المدينة كلها. ضربة واحدة، ثم ثانية، كأنها طرقات على بابٍ لا يريد أحد فتحه.

ارتعشت المرأة التي تحتضن طفلها، وكمّمت فمه بيدها بقوة، بينما انكمش الصغير في حضنها بلا صوت، كأنه فهم أن أي نفسٍ زائد قد يكون الأخير.

وعلى بُعد خطوات قليلة، من خلف باب خشبي قديم، سمعنا شهقةً مكتومة. توقّف الوحش في مكانه. مال الجسد بلا رأس ناحية الصوت، وتقدّم خطوة واحدة للأمام. انزلقت المطرقة قليلًا من يده، ثم ارتفعت ببطء، وكأن الزمن نفسه توقّف عند تلك الحركة. ثقلها كان يشدّ ذراعه إلى أسفل، كأن الأرض تحاول استعادتها، لكن القبضة لم ترتخِ.

من خلف الباب، تكرّر الصوت. هذه المرّة لم تكن شهقة، بل بكاءً مكتومًا، متقطّعًا، بكاء شخصٍ يحاول أن يتذكّر كيف يتنفّس. انحنت الرأس المقطوعة قليلًا، وحدّقت عيناها الواسعتان في اتجاه الباب، ثم انفرج فمها ببطءٍ غير طبيعي. لم يكن صراخًا، بل همسًا أجشّ، خرج كاحتكاك حجرين في أعماق الأرض:

— «آاااه...»

ارتجف الخشب، لا... ارتجفت الروح خلفه. تقدّم الجسد خطوة أخرى، ثم توقّف، كأنه يمنح من في الداخل فرصة أخيرة، لا للهرب، بل للاعتراف. سمعتُ ارتطام الجبهة بالباب من الداخل، وصوت رجلٍ يهمهم بكلماتٍ غير مفهومة، بين الدعاء والاعتذار.

ثم عاد الصوت. تك... تك... احتكّ الفكّان مرة أخيرة، أبطأ من السابق، أقرب إلى الرضا.

وهوت المطرقة. لم نرَ الضربة، لكننا سمعناها. صوتٌ مكتوم، تلاه انكسار، ثم صمت. صمت لم يكن طبيعيًا، بل صمتًا ممتلئًا بشيءٍ انتهى إلى الأبد.

بعد لحظات، انفتح الباب ببطء من تلقاء نفسه. لم يخرج أحد. دخل الوحش، واختفى في الظلام خلف الخشب المكسور، كأن المكان ابتلعه.

وبقيتُ أنا في مكاني، عاجزًا عن الحركة، مسمارًا مغروسًا في الأرض، أدرك متأخرًا حقيقة واحدة عن مدينة الموتى:

الوحوش هنا لا تقتل عشوائيًا. إنها لا تأتي لمن يركض... بل لمن يعتقد أن صمته سينقذه.

لم نتحرّك فورًا بعد اختفائه. ظلّ الصمت جاثمًا علينا، كأنه اختبار أخير: من ينجو من الرعب يبقى صامتًا، بلا صراخ، بلا أمان. استعاد فارس قدرته على التنفس أولًا، شدّني من ذراعي بعنف خافت، وهمس أن الوقت قد حان قبل أن يعود. لم أسأله إلى أين. في مدينة كهذه، السؤال رفاهية، والنجاة قرار أعمى.

ركضنا دون أن ننظر خلفنا، دون أن نلتفت إلى الصرخات التي تعلو من أماكن أخرى، وكنا نشعر أن تلك الليلة لم تنته بعد، وأن الوحش لم يكن وحده. خرجنا من الأزقة الضيقة إلى أطراف المدينة، حيث خفّ الظلام قليلًا، وكأن الأرض نفسها بدأت تتخلّى عن لعنتها. استمر الركض حتى لم نعد نميّز إن كنا نهرب من الموت أم نركض نحوه.

فجأة، ظهر أمامنا ضوء ضعيف، شعاع من قمر غائب يخترق الظلام. دفعنا الفضول والخوف معًا، فركضنا نحوه، وما إن اقتربنا، حتى تبيّن أن ما أمامنا ليس

سوى بوابة خشبية مهترئة، وعلى مقربة منها نبتت أعشاب غريبة بألوان غير طبيعية.

دخلنا من خلالها، ووجدنا أنفسنا في مساحة أوسع، الأرض ما تزال متشققة، والهواء يئن من عبق الموت والجنون. كانت هذه مدينة المجانين، حيث كل من يدخلها بلا عقل، وكل عاقل سيجنّ في النهاية، بل سيصبح أكثر فظاعة من المجانين أنفسهم. هنا، الجنون لا يُخبأ، يصرخ ويضحك ويتمايل بلا سبب، وأي حركة خاطئة قد تجعلك ضحية لعنفهم الغريب.

على مشارف المدينة، تسللت إلى آذاننا أصوات عالية: ضحكات هستيرية، كلمات متقطعة غير مفهومة، صرخات استغاثة تتلوها ضحكات أعلى، حتى اختلطت الأصوات، ولم نعد قادرين على التمييز بين الألم والجنون. نظرنا إلى بعضنا، نظرة واحدة كانت كافية لطرح السؤال نفسه دون كلمات: ماذا ينتظرنا داخل هذه المدينة؟

الخوف من الوحش القادم من أرضٍ لا تنتمي للأحياء ولا للأموات دفعنا للاختباء على أمل واهن ألا يصل إلينا. في إحدى الزوايا، بدا شيء يشبه حانة، وكأن اتفاقًا صامتًا عُقد بيننا، اندفعنا نحوها مسرعين، قلبي وفارس يكادان ينفجران من الخوف. الحانة كانت صغيرة، الطاولات والخزائن خشبية متناثرة، كرسيان هنا، أربعة أو خمسة هناك، تمتد على طول المكان.

في آخر الحانة جلس رجل بملابس رثة ممزقة، لم نر منه سوى ظهره، وعلى الطاولة الأخرى في المنتصف جلس رجلان، أمامهما أكواب مشروبات وزجاجات فارغة، يعبثان بها، ويتمايلان يمينًا ويسارًا، يتمتمان بكلمات لا يفهمها سواهما. بدوا هادئين أكثر مما يجب، لم ينتبها لوجودنا... أو هكذا اعتقدنا.

جلسنا منهكين من الركض، وما إن لامست أجسادنا المقاعد حتى بدأت الضجة. الرجلان بدأوا يخبطان بالأكواب على الطاولة، ارتفعت الهمهمات، تحركت رؤوسهما وأجسادهما في تمايل غريب، كأنهما دُمى خيطها الجنون. فجأة رفعا رأسيهما نحونا، ونظراتهما كادت تزهق أرواحنا قبل أجسادنا. في لحظة خاطفة، وقف الرجل العجوز من طاولته، وقبل أن يلتفت إلينا، تقدم الرجلان نحونا وأحكما

قبضتهما علينا. تعثرت أقدامنا، ارتجفت قلوبنا قبل أجسادنا، وكأن كل عضلة في أجسادنا متجمّدة من الرعب، حتى التنفس أصبح عبئًا ثقيلًا.

اقترب العجوز ببطء، راح يحدق في أعيننا، يحرك مقلتيه يمينًا ويسارًا، نحوي تارة ونحو فارس تارة أخرى، وتمتم بصوت أجش يسأل عما إذا كنا غرباء. لم نستطع الإجابة، ولا حتى ابتلاع ريقنا الجاف.

حينها جاء صوت صاحب الحانة من خلف المنضدة يحذرنا بأننا إذا أردنا النجاة، فعلينا تقليده، وما أن بدأ يتمايل يمينًا ويسارًا ويصدر أصواتًا غريبة، حتى انفجرنا نحن ضحكًا معه. علّت الضحكات، وتحول الخوف إلى رقصة جنونية، أخذنا جميعًا نتمايل، أيدينا في قبضتهم، وسط الضحكات والهمهمات وأصوات الأفواه التي لا تقول شيئًا لكنها تقول كل شيء.

فجأة، نظر العجوز نظرة حادة، كإشارة انتهاء الطقس، وعاد كل شخص إلى مكانه كما لو لم يكن شيء. حلّ المساء، وساد صمت ثقيل دام دقائق، وكاد قلبي يتوقف حين اخترق السكون صوت المطرقة وهي تحتك بالأرض، خطوة بعد أخرى، ببطء ثقيل، تحمل معها رائحة الرعب والعفن، وتحمل وعدًا واضحًا بأن الوحش اقترب من المكان، وكأن الأرض نفسها تتنفس الرعب قبل أن يطل منه.

ظلّت أقدامنا تهرول في الأزقة الضيقة مرة أخرى، وكل صوت خطوة كأنه إعلان موت محتوم. كان الوحش يقترب، ورائحة العفن والفزع التي تركها خلفه تشعل القلق في صدورنا. فجأة، سمعنا صدى المطرقة مجددًا، لكن هذه المرة مختلفًا... الصوت صادر من بعيد، عميقًا، متصلًا بصرخات مكتومة، وكأن الأرض نفسها تصرخ بصمت.

وفجأة، ظهر الوحش أمام رجل حكيم كان ينصح المارة ويعلّمهم أمور الحياة، واقفًا بثبات كأنه يعلم أن الخراب يقترب. الوحش ذو الشعر الهايش، وعيناه جاحظتان، يبدو أنه أحد المجانين العائدين من أرض الموتى. وفي لحظة خاطفة، أمسك بالحكيم وفصل رأسه عن جسده، ألقاه في الطريق، ثم مضى في طريقه وكأن شيئًا لم يحدث، يتمايل برأسه وجسده يمينًا ويسارًا، في رقصته الوحشية التي لا ترحم.

مدينة المجانين... يقتل فيها العقلاء، وما إن تُدفن جثثهم في أرض الموتى، حتى تتسلل في المساء بعد أن أصابها الجنون الحقيقي لتعود وتنتقم. لكنها لا تكتفي بالانتقام من قاتلها وحده، بل تصيب كل الحكام، كل الحكماء الذين يجرؤون على التفكير أو توجيه الآخرين، لتعيدهم إلى فوضى الجنون التي لم تغادرها منذ الأزل.

قلوبنا كانت تتسارع مع حركة أقدامنا، نهرول هاربين من مدينة الجنون قبل أن تبتلع عقولنا كما ابتلعت غيرنا. الخوف لم يعد خلفنا فقط، بل صار يلاحقنا، يلهث معنا، يطرق صدورنا بعنف.

وفجأة، ظهر أمامنا—بعيدًا عن الجنون المستعر—بوابة صغيرة، مضاءة بخيوط خافتة، بدت كمشارف مدينة جديدة... ملاذ محتمل من هذا الجنون المتفشي.

دخلتُ أنا وفارس من البوابة الصغيرة، وكان أول ما اجتاحني صمتٌ ثقيل، لا يشبه غياب الأصوات بقدر ما يشبه اختناقها. شعرت بأن المدينة نفسها تحبس أنفاسها، تراقب كل حركة، كل رمشة عين، كل خفقة قلب.

الأرض مرصوفة بحجارةٍ قديمة متشققة، وتقدّمت ببطء، وكل خطوة أخطوها تُحدث صدى طويلًا يتردد بين الجدران، كتحذير خفي: هنا... حتى الحركة ليست بريئة. الأشجار على جانبي الطريق باهتة، وأوراقها ساكنة كأنها تخشى أن تُسمع. الفوانيس المعلّقة على الجدران تُصدر وهجًا ضعيفًا، يكشف بالكاد الممر، ويترك كل شيء آخر غارقًا في الظلال الكثيفة، لا تطمئن، ولا تفسر.

أمسكت بيد فارس دون وعي، والكلام تحشرج في حلقي. إنها مدينة الصمت... هنا لا يُسمع صوت، لا صرخات، لا ضحكات، ولا حتى بكاء. الفراغ لا يضجّ... بل يهمس. الشيء الوحيد الذي يمكن سماعه هو همس الأرواح، وأصوات القلوب المرتعشة، قلوب أنهكها العذاب حتى صار الألم جزءًا من إيقاعها.

كنت أسمع دقّات قلبي أعلى من أي شيء آخر، كأن صدري صار سجنًا لصوت لا يُسمح له بالخروج. في هذه الأرض، لا يحقّ لك أن تغضب، ولا أن تعترف بحزنك، ولا أن تئنّ من الألم. مشاعرك يجب أن تبقى حبيسة أنفاسك، مدفونة، صامتة، لا يسمع صوتها سواك. لأنك... بمجرّد أن يفيض الغضب من صدرك، أو تضجر من قسوة ما حولك، بمجرّد أن تبكي، أو تصرخ، أو تسمح لصوتك

الداخلي أن يتسلل إلى الخارج... تسقط عليك المطرقة. ليست مطرقة عادية، بل مطرقة الوحش الصامت. حين يضرب، لا يُسحق الجسد فقط، بل يُسحق الصوت ذاته، وتُمحى القدرة على التعبير، كأن المدينة تنتزع منك حقك في أن تكون إنسانًا. هنا... الصمت ليس خيارًا، الصمت هو النجاة.

كنّا نتسلّل بين البيوت كظلال تخشى أن تُرى، أو حتى أن تُحَسّ. فجأة... سمعتُه. أنينًا خافتًا. ليس صراخًا، ولا بكاءً صريحًا، بل صوتًا مكسورًا، يخرج من بين الضلوع متخفّيًا، كأن صاحبه يخشى أن يسمعه الألم نفسه.

توقفت في مكاني، وانقبضت يدي على ذراع فارس . كان الصوت صادرًا من بيت قريب، يبدو عاديًا، بابه موصد، ونوافذه مغلقة، لكن الحزن كان يتسلل من جدرانه كما يتسلل الدخان من الشقوق.

كان رجلًا، أنينه متقطّع واطئ، يبكي دون أن يسمح لصوته أن يعلو، كأنه يعرف القاعدة ويحاول النجاة منها. نظرت لفارس، وقلبي يرتجف دون أن أنطق بكلمة، وعرفت من عينيه ما كنت أخشاه: «سيهلك الرجل.»

وفجأة... زاد الأنين لحظة قصيرة كآخر محاولة للتنفس، ثم سكون. ليس سكونًا طبيعيًا، بل انقطاع مفاجئ، كأن الروح نفسها كُتمت. ثم سمعناها... الطرْقَة.

لم تكن صاخبة، ولا عنيفة، لكنها كانت ثقيلة، حاسمة، نهائية. كأن المطرقة لم تهوِ على الرأس فقط، بل على الصوت... على القدرة ذاتها. اهتزّ البيت اهتزازًا خفيفًا، ثم عاد الشارع إلى صمته، كأن شيئًا لم يحدث. لا صراخ، لا استغاثة، ولا حتى صوت سقوط جسد.

لكنني عرفت. الرجل لم يُقتَل... لقد مُحي.

الوحش الصامت سمع أنينه، سمع حزنه المكبوت، وجاء. في مدينة الصمت، حتى الألم الذي يُخفى له صوت... وصوته يستدعي المطرقة.

بقينا واقفين لثوانٍ، لا نتحرّك، ولا نتنفّس. اقترب فارس وهمس قرب أذني: ـــ «يجب أن نغادر... قبل أن تخوننا قلوبنا.»

أومأت بصمت، وأدركت في تلك اللحظة أن خوفي لم يعد من الموت... بل من أن يعلو صوتي الداخلي دون قصد.

ركضت أنا وفارس، أقدامنا تثقلها الرعب، حتى حملتنا الأزقة إلى مشارف مدينة يفوح منها عطر الياسمين، ممزوجًا بأنفاس الأزهار البرّية.

مدينةُ المُحبّين... هكذا يسمونها. مدينةٌ يفترض أن تبعث الطمأنينة في القلب، غير أن شيئًا خفيًّا كان يخنق الهواء، كأن العطر نفسه يخفي تحته لعنةً قديمة.

حتى ونحن نمر، كانت أصوات الاستغاثة تقتحم سكونها كالسكاكين، بينما الأزقّة مرصوفة بالحجر الأبيض، وشرفاتها تتدلّى منها نباتات مزهرة، وكأن المدينة بأكملها تتنفس وردًا، لكن هذا النفس نفسه يخنقنا.

علمنا حينها... أن كل من يقع في الحب هنا، تفوح منه رائحة الزهور، علامةٌ لا تخطئها أنوفهم، وحكمٌ لا نجاة منه.

اقتربنا أكثر، مدفوعين بالقلق، لا نعرف أيّ مصيرٍ ينتظرنا بعد أن نجونا أخيرًا من ذلك الوحش... لنقع — دون أن ندري — في قلب وحشٍ أكبر.

في الساحة الرئيسية، توقّفت أنفاسنا.

كانت هناك عربة تتوسّط المكان، تعلوها قفص حديدي، وقد احتُبس بداخله شابٌ وسيم، واقفٌ متشبثًا بقضبان القفص كأنها آخر ما يربطه بالحياة.

بين أطراف أصابعه زهرة حمراء، تفوح رائحتها بقسوة، ممتزجة برائحة أخرى تنبعث منه هو نفسه... رائحة حب مكشوف، وخوف، ويأس يعرف نهايته.

صرخ، بصوت مكسور:

— «لا تقتربوا منها... إنها حبيبتي!»

وعلى الجانب الآخر، كانت تقف فتاة يفوق جمالها جمال كل النساء.

عيونها زرقاء كبحر حزين، وشعرها أشقر منسدل على كتفيها، جمال يربك النظر قبل القلب.

كانت تبكي، تنظر إليه بنظرة تختصر عمرًا كاملًا من العشق، وكأنها تعتذر له لأنها أحبّت.

علمت حينها... إنهما عاشقان، وفي أرض المحبين كل من يحب، تفوح من جسده رائحة الحب، فتفضح أمره، ويصبح مصيره محسومًا.

وفجأة، أُحكمت القبضة عليها.

رجلان تقدما من الظلال... لم يكونا كأي رجال.

أجسادهما ضخمة، ملامحهما جامدة كأنها نُحتت من حجر، عيونهما بلا لون، بلا رحمة.

ارتديا دروعًا داكنة تفوح منها رائحة صدأ ودم قديم، وعلى صدورهما رمز المدينة... علامة الحُكم والتنفيذ.

إنهم حرّاس القانون... قانونٌ واحد لا يُغفَر: الحب جريمة، وعقوبته الإعدام.

أمسكا بها بلا كلمة، بلا تردّد، وأخذا يسحلانها على أرض الساحة، بينما صرخ الشاب من داخل القفص، وصوته يتكسّر مع كل خطوة تُبعدها عنه.

أما هو... فكان مصيره الزنزانة، انتظار الموت، لأن قلبه تجرّأ وأحب.

وأما هي... فقد كانت غنيمتهم، عقابًا آخر أشد قسوة، لأن قوانين هذه المدينة لا تكتفي بقتل العاشق... بل تُعذّب الحب نفسه قبل أن تقتله.

حلّ المساء... وما إن غابت الشمس خلف أسوار المدينة، حتى تغيّر كل شيء.

خفّت روائح الزهور فجأة، كأنها أدركت أن الليل لا يرحم، وتحوّل عبير الياسمين إلى نفس خانق، يُشبه رائحة المقابر بعد المطر.

أُغلقت الأبواب، وانسحب الناس إلى بيوتهم، فالليل هنا ليس للنوم... بل للحذر.

أمسكتُ بيد فارس، وقلبي يرفرف في صدري كطائر مذعور، بينما نسلك الأزقّة الضيقة بين بيوتٍ مُقفلة، محاولين أن نتجنّب أيّ نظرة أو صوت قد يكشفنا.

فجأة، اهتزّت المدينة تحت أقدامنا، كل حجر يتخبط وكأن الأرض تصرخ من ألمها، وانتشرت الأقاويل بين سكان الأرض أن هناك في مدينة الموتى ظهرت امرأة منذ أيام.

نهضت المرأة، لكنها لم تُشبه بقية العائدين. لم تتجه إلى المدن المجاورة، بل سارت بثبات نحو مدينة شبان نفسها. رأسها قد قُطع، لكنه ينبض، وعيناها مفتوحتان، وفمها يتمتم باسمٍ لم يسمعه أحد.

في الليالي الأولى، زحف الرأس وحده، وفي الليلة السابعة، خرج الجسد بلا رأس. اقتربا من بعضهما، والتحما... لا كجسدٍ يعود إلى الحياة، بل كلعنةٍ تكتمل. تتحرك المرأة ببطء في الأزقة، تلتقط كل همسة، كل اعتراف مكتوم. كانت ندى... أول من دُفن ظلمًا في تلك الأرض، شاهدة اللعنة، وقوة مظلمة تجوب المدينة.

وفي لحظة واحدة، ارتجّت المدينة كلها، كأنها تتألم وتنتفض. وفي تلك الليلة، لم تخرج الجثث، وتوقّفت الرحلات الليلية، وتراجعت الظلال. نامت المدينة في طمأنينة كاذبة... لكن الجثة الجديدة لم تكن مثلهم.

تسربت ندى إلى المدينة، تمرّ بين البيوت، وتتوقف أمام الأبواب، تضع يدها على الجدران، فتسمع ما لا يسمعه الأحياء؛ كل صرخة مكتومة، كل خيانة دُفنت، كل ظلم مرّ دون حساب. هنا فقط، عرفنا الحقيقة: لم تكن ندى ضحية قتل عادي، بل أول من دُفن ظلمًا في أرض شبان. كانت امرأة رفضت المشاركة في أول جريمة، فصلوا رأسها عن جسدها، ودفنوها لتكون الأساس... الدم الأول، مصدر اللعنة.

وحين اكتمل جسدها، تغيّر كل شيء. بدأ الأحياء يرون موتاهم في المرايا، يسمعون أصواتهم من تحت الأسرة، ويشمّون رائحة التراب في صدورهم. لم تعد الجثث تخرج لقتل القتلة، بل لتعلن بداية نهاية المدينة والمدن المجاورة.

أمسكتُ بيد فارس أقوى، وجرّيته خلفي إلى حافة المدينة، حيث كان البحر يمتد أمامنا، طريق النجاة الوحيد من لعنة الأرض. الأمواج تعانق الشاطئ في هدوء، وكأنها تدعونا، تهتف بصوت خافت، أمل أخير وسط فوضى الجنون.

ركضنا، وقلوبنا تكاد تنفجر من الخوف، وصرخات المدينة، همسات الموتى، ورائحة الحب المفسد تتسلل إلينا حتى آخر لحظة. وصلنا إلى المركب الصغير الذي انتظرنا خلف صخور الشاطئ، ودفعناه في الماء، نبتعد عن الأرض التي لم تعد سوى سراب غاضب.

مع ابتعادنا، شعرتُ بالأرض تتلاشى من حولنا. ندى، المدينة، الجثث الملعونة... كل شيء يختفي تدريجيًا في الظلام، كأنها لم تكن موجودة سوى لتعلمنا معنى الرعب. الأبنية تنهار في موجة من الصمت، الأزقّة تتلاشى في ضباب الليل، وكل أثر من الماضي يبتلع البحر، تاركًا وراءه فراغًا مطلقًا.

ركبنا الأمواج، والحرية بدأت تحيط بنا. شعرتُ بالهدوء لأول مرة منذ زمن بعيد، لكنني علمت أن أي خطوة إلى الوراء قد تعيدنا إليها، وأن هذه الليلة ستظل محفورة في ذاكرتنا، ذكرى لعنة لم تعد موجودة إلا في أعماقنا... وذكريات البقاء على قيد الحياة.

* * * *

ألفة في الظلام

لم تأتِ تلك الليلة على هيئة ليلة عادية، بل كانت باردة إلى حد شعرت فيه أن الشتاء لا يطرق الأبواب، بل يسكن الصدور. كنت وحيدًا، ليس لأن الطرقات خلت من البشر، بل لأن داخلي كان أكثر فراغًا من أي شارع مهجور. لم أكن أبحث عن مأوى من المطر، ولا عن جدار أستند إليه؛ كنت أبحث عن نفسي... تلك التي أفلتت من بين يدي دون أن أشعر. منذ صغري وأنا أتخبّط في الطرقات أفتّش عن ضالّتي، إلى أن أمسكت بيدي تلك السيدة الغامضة، فانتُزعت من عالمي دون مقاومة، وأُلقي بي في عالم آخر، عالم تتداخل فيه الظلال، ويتشابك فيه الغموض كالأشباح.

في تلك الحياة الموجعة، التي يقطر فيها قلبي دمًا ممزوجًا بنيران وحرقة، وقفت وحيدًا، خالي الوفاض، أبكي حسرتي وقهرتي التي ما زلت أعجز عن البوح بها. كنت أنزف وأحترق، وأداوي لوعتي بلحظات ألم مختصرة، حتى خيّل إليّ أن الأرواح الشريرة تسكنني مع كل نفس أتنفّسه، وتتركني أكثر فراغًا مما كنت. لم تكن الحياة عادلة، ولم يقف الحظ بجانبي حين كنت في أمس الحاجة إليه. ظللت أتساءل: هل أنا مذنب إلى هذا الحد؟ أم أنّه مجرد قانون أعمى لا يلتفت إلى الوجوه المنكسرة؟

وبينما كنت غارقًا في التيه، ظهرت تلك السيدة مجددًا. تحدّثت إليّ وكأنها قرأت قلبي قبل أن أنطق، وقالت بصوت خافت لكنه نافذ:

« لا تحزن... فمع أول اختبار للحياة، ومع أول فقد، تتوالى سهام الغدر وتنهال طعنات الحمقى. ستقف عاجزًا أمام ضربات لم تتوقعها من من وثقت بهم. تنهال عليك، تسلخ جلدك، تهشّم عظامك، وتمزّق كبدك... ولن يكتفوا بذلك. وفي هذه المرّة، لن تأتي الطعنات من الخلف فقط، بل ستتلقّاها بصدرِك، حتى لا يبقى فيه متّسع للمزيد. وحين تظن أنهم انتهوا، يبتسمون بسخرية باردة ويقولون: ممّ تحزن؟ لم نفعل بك شيئًا بعد.

ما زال بوسعنا أن نصبّ عليك وبالنا ولعناتنا، وما زال بوسعنا أن نطعنك ألف طعنة، وليس من حقك الاعتراض أو حتى محاولة الصدّ. ما زالت لدينا القوّة والإرادة والعزيمة لنحرق أجزاءك، ولا يَشفى غليلُنا. وما زال بوسعنا أن ننسفك في أرضك... ولا نكتفي.»

سكتت، لا لأن كلماتها أقنعتني، بل لأنها أنهكتني أكثر مما أراحتني. وجدت نفسي أتساءل بصوت خافت لا يسمعه أحد: هل ستنير الدنيا يومًا دروبي؟ أم سأبقى حبيس زنزانة قصري الحزين، ذلك القصر الذي ينهش روحي وقلبي؟ انخفضت على حافة سريري، أستشعر برودة الغرفة، وأسترجع طعنات الغدر التي اجتاحت صدري...

وأنا مستغرق في دوامة أفكاري، لمحْتُ شيئًا عند نافذتي الزجاجية. نظرت إليه لأرى شيئًا يشبه البشر، لكن وجهه مختلف... خطوطه دقيقة ومتوازنة بطريقة غير مألوفة، وعيناه واسعتان ولامعتان، تحملان عمقًا وغموضًا كأنهما تطلّان مباشرة إلى داخلي. فمه صغير ومبتسم بطريقة ثابتة، لكن ابتسامته كانت غريبة، تحمل دفئًا وحزنًا في آن واحد. ملمس بشرته يبدو ناعمًا كالزجاج، ولونه مختلف قليلًا، كأن الضوء يمرّ عبره دون أن يكسف وجهه. شعره غائب أو يتلاشى في الهواء، وكأن رأسه يذوب في الضوء الخافت، بينما خطوط وجهه تتلألأ برقة، تعكس مشاعري وتهدئ اضطرابي.

شعرت بألفة غريبة تجاهه، وودت لو كان صديقي، كأن الله أرسله إلي من السماء. لم أتحرك ولم أشعر بالخوف، بل اجتاحني شعور بالطمأنينة، كأن وجوده يملأ فراغًا ظل يتسع داخلي منذ زمن. ظل واقفًا خلف الزجاج، يكتفي بابتسامته الثابتة التي لم أفهم معناها.

مرّت دقائق أو ثوانٍ، فقدت الإحساس بالزمن، وكل ما شغلني سؤال واحد: لماذا أشعر أنني أعرفه؟ رفعت يدي ببطء ولمست الزجاج، وشعرت بقشعريرة تسري في جسدي، كأن أحدهم لامس قلبي من الداخل. لم تتحرك ملامحه، لكن عينيه كانت أعمق من أن تُشبه عيني بشر، ومع ذلك لم أرد أن يرحل. همست بالكاد: «من أنت؟» لم يُجب، لكن ابتسامته اتسعت قليلًا، كأنه سمع سؤالًا آخر لم أنطقه.

بدأ يُحرّك أصابعه على الزجاج، فظهرت خطوط غير منتظمة، ثم رسمة وجه يضحك. لم أدرِ لماذا، لكن تلك الرسمة لامست قلبي مباشرة، كأنها تعرف طريقها إليه دون استئذان. ضحكت معه على غير إرادة مني، ضحكة خرجت غريبة عني، لم أسمعها منذ زمن.

في تلك اللحظة شعرت أنه لم يعد يقف خلف الزجاج، بل تسلّل إلى عمق قلبي، مدّ يده إلى داخلي، وانتزع الغصّة الغائرة التي طالما أرهقتني. رسمت على الزجاج قلبًا، فابتسم... ابتسامة أضاءت العتمة التي كانت تبتلعني. جلست أمامه، أسترق النظر إلى وجهه المبتسم، كأن صمته كان مليئًا بالكلمات التي لم تجرؤ أفكاري على نطقها.

بدأت أنسج معه حوارًا صامتًا، أنقل له أفكاري المخفية، أسراري الصغيرة، وأحلامي الضائعة، وهو يبتسم فقط، كمن يقول: «أنا أفهمك... كل شيء سيكون بخير». حضوره وحده كان كافيًا، كأنّي وجدت رفيقًا قديمًا كنت أبحث عنه طوال حياتي دون أن أعلم.

مرّت دقائق أو ساعات، لم أعد أدرك، لكن شعورًا لم أشعر به منذ زمن اجتاحني: راحة، سلام، وطمأنينة تختلط بالدهشة، وكأن العالم كله توقف لبرهة، وسمح لي أن أتنفس بحرية بعد سنوات من الكبت والغصة. وعندما ابتعد عن نافذتي، بقيت جالسًا صامتًا، أستشعر شعورًا خفيفًا مختلفًا عن كل ما عرفته من قبل، كأن الهواء نفسه أصبح أخف، وكأن الليل الذي كان يثقل جسدي قد تراجع قليلًا، ليفسح مجالًا لألوان لم أرها منذ زمن بعيد.

أمسكت قلمي، لا لأهرب من الماضي، بل لأمنحه مكانه الصحيح، وفتحت الصفحة البيضاء... لم تكن ناصعة، لكنها كانت كافية لأبدأ.

*** * * ***

بائع الورود والحنين

في أحد أحياء الإسكندرية، جلس عمّ حسين، بائع الورد، على أريكته الخشبية، يراقب المارّين بصمت. لم يكن يبالي بزخّات المطر التي تتساقط فوق رأسه الذي غمره الشيب، كأنها جزء من ذاكرته لا تزعجه برودة الطقس. كان يرى في عيون العشّاق جمال البدايات... ذلك الضوء النقي الذي لم يُثقله بعدُ غبار الحياة، ولم تنكسر حدّته بخيبات الزمن.

لم تكن نظراتهم سوى شرارات من الشوق والحنين والسعادة، تلمع في عيونهم كما كانت تلمع في عينيه يومًا ما. فاندفع به الزمن إلى الوراء، وعاد يتذكّرها... حبيبته.

رأى نفسه يجثو على ركبتيه أمامها، يمدّ يده بوردة حمراء ويطلب منها الزواج. كانت جميلة رقيقة، وجهها مشرق كأنه يسابق القمر في جماله، ترتدي معطفها الأحمر، وتضع قبعة سوداء فوق شعرها المنسدل زادتها سحرًا وبهاءً. عيناها الواسعتان وابتسامتها الخجولة كانتا كفيلتين بأن تجعلاه يحلّق كطائرٍ تحرّر من قفصه. وفي تلك اللحظة، سافر عبر الزمن ليعود إلى عالمٍ كان فيه بجوار حبيبته قبل خمسة أعوام.

تذكّري، حبيبتي، تلك اللحظات الجميلة التي عشناها سويًّا... تذكّري ليلة زفافنا، كم كانت ليلةً رائعة. تذكّري رقصتنا الأولى، وأنتِ تتمايلين بخفّة وسعادة، كنتُ أسمع دقّات قلبك مع كل خطوة نخطوها يمينًا ويسارًا.

هيا يا حبيبتي، افتحي فمك الآن، وتناولي حساء الخضروات المحبّب إلى قلبك، وأنتِ تستحضرين تلك اللحظة التي وضعتِ فيها قطعة اللحم في فمكِ، في مطعمنا المفضّل، حين التقينا لأوّل مرة، وحين جثوتُ على ركبتيّ واعترفتُ لكِ بحبّي.

هل تعلمين، حبيبتي؟ كلُّ الرجال ينسون التواريخ المهمّة، أمّا أنا فأحفظها كأنها حدثت بالأمس. كان يوم الخامس والعشرين من ديسمبر عام ١٩٦٥، أليس كذلك؟

ابتسمت السيّدة صفية وهي تنظر إلى زوجها وحبيبها، تعيش معه تلك الذكريات التي ينسجها لها بعناية، علّها تُخفّف ألم ذلك المرض اللعين الذي أصابها منذ عشرة أعوام. ومنذ ذلك الحين، كان يخشى أن تفقد ذاكرتها... أن تنساه.

ابتسمت له، وكان وجهها يرسم ملامح سعادة صامتة بما يهمس به إلى قلبها. ثم عاد يذكّرها من جديد: أتتذكّرين أوّل ليلة لنا في بيتنا الذي بنيناه معًا؟ كل قطعة أثاث هنا... أنتِ من اخترتها بنفسك. هيا يا حبيبتي، لقد أوشك الحساء على الانتهاء.

انسابت دموع الشوق على وجنتيه، وبكى حبيبته التي سرقها منه المرض... ذلك المرض اللعين الذي اختطفها منذ عامين، وتركه وحيدًا يبيع الورد لحياةٍ لم تمنحه وردته الأخيرة.

استيقظ من حلمه الجميل على صوت شاب يقف أمامه قائلًا في حياء:

— ممكن وردة... لحبيبتي؟

رفع عمّ حسين رأسه ببطء، مسح دموعه، وأعطى الشاب وردة حمراء، وهو يبتسم ابتسامة باهتة تخبّئ وجع السنين... لكنه ما زال يؤمن أن جمال البدايات يستحق أن يُزهر.

فعندما تصبح الروح خاوية، تسير في الطرقات بحثًا عن بريقٍ واهٍ يعيد إليها نور الحياة.

* * * *

عودة بعد انكسار

في الحادي عشر من ديسمبر، دقَّ جرسُ الباب بعد أن كنتُ أخيرًا قد بدأتُ أستلقي على ظهري، منهكةً، عقب تلك الفوضى التي عشتها خلال الأيام الماضية. استجمعتُ ما تبقّى من قواي، ونهضتُ لأفتح الباب، فإذا بها صديقتي زينب تدخل وهي تلهث، بالكاد تلتقط أنفاسها، وقالت وهي تمسح جبينها:
«إلى متى ستسكنين أعلى طابق في البناية؟ الطابق العاشر يا مفتَرية! ألم يحن الوقت لتسكني طابقًا أرضيًّا؟ وإلا فلن أستطيع الصعود ثانيةً... لأن أنفاسي ستنقطع!»
أجبتها متثاقلة: «دعكِ من هذا، اليوم تعبتُ بما يكفي، ولا أريد أحداثًا جديدة.»
قالت زينب مسرعة، وقد نسيت أنفاسها المتقطعة: «لا، انتظري، لديّ خبر جديد للغاية!»
أجبتها بعينين نصف مغمضتين من التعب: «لا أريد سماع شيء.»
قاطعتني قائلة: «قُتل الدكتور نعمان.»
قلت بدهشة: «ماذا؟ الدكتور نعمان؟ صاحب السيارة الفيراري التي نترقبها كل يوم؟»
أجابت بحماس: «نعم، هو بعينه.»
سألت بفضول: «كيف حدث هذا؟ ومن قتله؟»
قالت: «لا نعرف. نُشر الخبر في الجريدة هذا الصباح، ووقع علينا كالصاعقة. ثم طلب مني أ. محمود، أن نتولى—أنا وأنتِ—ذلك السبق الصحفي. لا بد أن نذهب إلى هناك فورًا.»
كانت قواي خائرة، لا تحتمل أن تنتشلني من فوق السرير، فأجبتها بلا اكتراث:
«اذهبي أنتِ، ليست لديّ طاقة لفعل أي شيء سوى النوم الآن. اتركيني واذهبي.»
قالت بعصبية: «ستندمين يا ناهد! يجب أن تأتي معي، إنه سبق صحفي!» ثم أضافت: «إلى متى ستبقين هنا حتى آتيكِ بكل الأخبار من الخارج، ولا يكون عليكِ سوى تحليلها وكتابة المقال للنشر؟»
قلت بنفاد صبر: «زينب، اذهبي. تعلمين أنني لا أريد رؤية أحد، ولا التحدث مع أحد.»
قالت بشفقة: «لكن يا ناهد، هذا سبق قد يعيد الحياة إليكِ من جديد، خاصةً أن أ. محمود، سامحكِ أخيرًا، ونطق باسمك بعد أن كان يثور لمجرد سماع صوتك أو

ذكركِ من قريب أو بعيد.»
رفعتُ الغطاء عن رأسي وقلت: «زينب، دعيني واذهبي. سأنتظرك مساءً حين تعودين بكل الأخبار. أما الآن فسأخلد إلى النوم، كي أستطيع سماع ثرثرتك لاحقًا. تصبحين على خير، صديقتي العزيزة.»
أمسكت زينب وسادةً صغيرة ودَفعتني بها إلى وجهي، كما تفعل في كل مرة أُخالف فيها نصائحها الغالية.
ثم فتحت باب شقتي الصغيرة وخرجت، وهي تنعتني لأنني لم أذهب معها.
لم أستطع الخروج إلى العالم؛ فمنذ عامين وأنا أسكن ذلك الطابق العاشر هربًا من البشر، فلا يستطيع أحد أن يصعد كل تلك الدرجات ليلقي عليَّ اللوم.
بعد آخر سبقٍ صحفي سرقه مني ذلك اللعين عادل ونشره في صحيفة أخرى— بعد أن أتممتُ كل شيء فيه وكنتُ الأولى هناك—لم أعرف أين كان عقلي حين تسلل إلى حياتي بحجة المساعدة، ليسرق جهدي ونجاحي، ومعهما السبق الصحفي. كنتُ ساذجة بما يكفي لأن أسمح له بالاقتراب، وليعرف نقطة ضعفي.
كان يعلم منذ زمن أنني أشهر صحفية في المنطقة، دائمًا سبّاقة إلى الحدث، أحصد الأسبقية في القضايا الكبرى، حتى نلتُ أعلى درجات الترقّي. ثم جاء هو، فانهال على فكري وقلبي، ليمحو تاريخي المهني في غمضة عين، ويستولي عليه لنفسه.
كيف أعود؟ كيف أثق بالبشر؟ كنت أظنهم راجحي عقل، فجاءني الخذلان. كيف لامرأة مثلي، برجاحة عقلها، أن يُسرق سبقها الصحفي من بين يديها؟ كيف سقطتُ في فخ سذاجة حبٍّ كاذب؟
لا يكفيني أنه عوقب على فعلته، وسُحبت منه رخصة مزاولة المهنة بعد أن انتهك شرف المهنة. ما زلتُ لا أصدق كيف فعل ذلك بي، وكيف لم أكشف كذبه منذ البداية.
لم أعد أريد سوى تحليل القضايا من موقعي هذا، وكتابة التقارير بعد أن تأتي بها زينب. هي ليست جيدة بما يكفي، لكن عيّنها أ. محمود لتكون الحارس الأمين على كل ما أكتبه بعد تلك الحادثة، كي لا يجرؤ أحد على سرقته مرة أخرى.
واليوم، أجلس بين تلك الجدران التي تزيد اكتئابي، وسط فوضى وعشوائية اجتاحت حياتي، وأنا التي كنت أعشق النظام والانضباط، وأتفوق دائمًا على من حولي. لم أستطع النوم، رغم أنني منذ يومين لم أنل قسطًا كافيًا منه. بدأت الأفكار تتصارع في رأسي؛ تارة أفكر في الدكتور نعمان، وأتساءل: من قتله؟ من له مصلحة؟ هل كان له أعداء؟ كاد التفكير أن ينهش عقلي.
وبينما أنا غارقة في هذا الصراع، رنَّ هاتفي، معلنًا اتصالًا طال انتظاره منذ عامين. لم أصدق نفسي. تسارعت دقات قلبي، وبدأ العرق يتصبب من جسدي.
كان رقم أ. محمود، رئيس التحرير.

ترددتُ طويلًا قبل أن أضغط زر الإجابة أخيرًا.
أجبت بصوت متقطع، كمن يخشى العتاب واللوم، مستسلمةً: «ألو... السلام عليكم، أ. محمود.»
أجاب من الجهة الأخرى: «وعليكم السلام، أ. ناهد.»
ثم قال بحزم: «إلى متى ستظلين داخل ذلك الجحر؟ ألم يأتِ الوقت بعد للخروج؟ مرَّ عامان على تلك الحادثة، وهذا يكفي. تعلمين أنني لا أستطيع الاستغناء عنكِ. لا يكفي أن تكتفي بكتابة التقارير من عزلتك. حان الوقت لتعودي إلى عملك في أسرع وقت. أنتظركِ اليوم في الجريدة لتشرحي لي تفاصيل الجريمة.»
وأغلق الهاتف دون أن ينتظر إجابتي.
وقفت أفكر في كلماته، ولأول مرة منذ تلك الحادثة شعرت أنني قادرة على مواجهة العالم. دبَّ الحماس في داخلي، كأنها أول مرة أعمل فيها. نظرتُ في المرآة، أحدث نفسي:
لقد حان الوقت يا ناهد أن تطوي صفحة الماضي وتبدئي من جديد.
ارتديت ملابسي بعد معاناة في العثور على ما يناسبني—فقد تغيّر مقاسي، وصرتُ نحيفةً هزيلة. ابتسم وجهي لأول مرة منذ زمن؛ شعرت كأنني أبعث من جديد. ثم نزلت درجات السلم بخطى واثقة، أسعى نحو هدفي بروح جديدة... وأمل جديد.

* * * *

انتظار على الشاطئ

صغيرتي... طفلتي الصغيرة، اليوم عيد ميلادك. انظري، لقد أحضرتُ لكِ كعكة الشوكولاتة التي تحبينها، والبالونة الحمراء... تلك التي كانت تكفي لتجعلكِ في قمة سعادتك.

وضع الكعكة على الرمال بحذر، ونفض عنها الملح والرمل بيده المرتعشة، ثم ربط البالونة الحمراء في وتدٍ خشبي صغير، وتركها تتمايل مع الريح.

اشتقتُ إليكِ يا صغيرتي... ألم تشتاقي إلى والدك؟ ذلك الكهل العجوز الذي لم يتوانَ لحظةً عن انتظار مجيئك. ألا ترحمين قلبًا انفطر بغيابك، بعد أن فرّقنا الموج، وحال بيني وبينك؟ سرقتكِ الأمواج... ويا ليتها ابتلعتني، ولم تحرمني منكِ.

كنتِ أميرتي، طفلتي الصغيرة. لم يكن يتجاوز عمركِ العشرة أعوام، واليوم أتممتِ عامكِ الثلاثين. لا تقلقي... قد أنسى حياتي كلها، لكنني لا أنسى وجهكِ يا صغيرتي.

بحّ صوته وهو ينطق اسمها، فتوقف لحظة، وأعاد نظره إلى الأفق... إلى النقطة ذاتها التي يقف عندها كل يوم، حيث يبتلّ الرمل تحت قدميه، كأن البحر حفظ مكان انتظاره.

أذكر أنكِ رحلتِ وأنا في ريعان الشباب. كنتُ أحملكِ على كتفيّ، وأجوب بكِ الشوارع، لترَي الدنيا من أعلى مكان. صغيرتي... لقد انتهى العمر، وتقدّم بي الزمن كثيرًا، وأنا ما زلتُ أنتظركِ هنا.

والآن... حان الوقت أن أرحل إليكِ، فقد تأخرتِ كثيرًا عن الرجوع. تلك كانت الكلمات التي يردّدها ذلك الشيخ العجوز، الذي لم يتوانَ يومًا واحدًا عن المكوث أمام الشاطئ، يحدّث ابنته الضائعة التي خطفها البحر منذ عشرين عامًا.

في كل غروب، يعود إلى المكان نفسه، البحر هو البحر، وهو... ما زال ينتظر. لكن حين تقترب منه، وتدقّق في ملامحه، تكتشف أنها ملامح رجلٍ ما زال شابًا، غير أن الحزن منحه عمرًا فوق عمره.

فحين تشيخ قلوبنا قبل أوانها، تبني الأوجاع جروحًا غائرة في الروح، وتُضاف إلى أعمارنا أعمارٌ ليست لنا... إنه عمر الحزن الساكن في الداخل. فنحن نعتاد الغياب لكننا أبدًا لا ننسى، فنظل عالقين بقلوب رحلوا عنا بأجسادهم، لكن قلوبنا، رغم البعد، ما زالت تتعانق في الخفاء.

فلا تعبثي بنا أيتها الحياة، فقلوبنا تذوب كلما غاب عنها عيونُ الأحبة.

وعلى شاطئ البحر، يظل الشيخ واقفًا، يهمس بصوتٍ ضعيف لكنه صادق:

«صغيرتي... إنكِ تعلمين أنني ما زلت هنا... أُحبك... أنتظر... وسأظل أُحبك إلى آخر رمق».

ثم جلس على الرمال، وابتسم للحظة أخيرة، وهو يشعر بأن انتظار عشرين عامًا قد منح قلبه شيئًا من السلام...

ورغم أن ابنته لم تظهر بعد، ظل قلبه ممتلئًا بالحب والحنين، مستعدًا أخيرًا للرحيل عن هذا العالم... لكن روحه كانت ستظل دائمًا على الشاطئ، مع صغيرته، حيث البحر... حيث الانتظار.

* * * *

حكايات عم حمزة

كانت السماء غارقة بألوان الغروب، ومع نسيم المساء العليل اجتمع البوابون حول طاولة صغيرة في فناء عمارة حازم الشوشاني. على الطاولة، أكواب الشاي الصغيرة تفوح منها رائحة النعناع، وشرار الفحم في الموقد القديم يلمع خافتًا، يبعث دفئًا يذيب ثقل اليوم الطويل.

جلسوا جميعًا على مقاعدهم الخشبية، ينصتون إلى عمّ حمزة، الذي جلس في مكانه المعتاد، ظهره مستقيم ورأسه مشحون بالشيب، وعيناه تتلألأن بوميض الحكايات التي لا تنتهي. رشفوا جميعًا من الشاي، وأخذوا يدفؤون أيديهم في الأمسية الهادئة، بينما صوت عمّ حمزة العميق يملأ الفناء.

«سأحكي لكم اليوم عن الست صابرة...» بدأ، وصوت الشاي عند الرشف ينسجم مع كل كلمة، وكأن الأمسية نفسها توقفت لتصغي للحكاية.

كانت الست صابرة قد بلغت من العمر ما جعل الأمل في الإنجاب يبدو بعيدًا، لكن قلبها لم يعرف اليأس يومًا. أقنعتها جارتها أن تذهب إلى سيدنا الحسين، لعلّ الدعاء في رحابه يفتح بابًا من أبواب السماء لقلبٍ طال انتظاره.

دخلت المسجد بخطوات مثقلة بالشوق، رفعت يديها المرتجفتين، وتضرّعت إلى الله بدموع الرجاء، تسأله ما اشتاق إليه قلبها قبل عقلها... أن يرزقها بالذرية الصالحة.

وحين خرجت، غلبتها دموعها، فجلست على درجات السلم تبكي في صمت، إلى أن سمعت صوتًا هادئًا يقول:

«أبشري... لقد تحقق مرادك.»

نظرت إليه في اندهاش، فأعادها مرة أخرى:

«أبشري... لقد استجاب الله دعاءك.»

ثم رحل، تاركًا قلبها يرتجف بين الدهشة والرجاء. عادت إلى بيتها تقصّ على زوجها ما حدث، فرفعا أيديهما معًا، يدعوان الله ويشكرانه، ويتمسكان بخيط الأمل الرفيع. وبعد أيام، جاءت النتيجة: كانت الست صابرة حاملًا في شهرها الأول.

انهارت بالبكاء، لا ألمًا بل شكرًا، وارتمت ساجدة تشكر خالقها الذي لا يخيب قلبًا طرق بابه بإخلاص. وبعد سنين طويلة من الصبر، أنعم الله عليها بجنين طالما سكن دعاءها.

رفع البوابون أكواب الشاي، وتبادلوا نظرات صامتة، وكأن الحكاية تركت أثرًا دافئًا في قلوبهم. كان عمّ حمزة يبتسم بهدوء، وهو يعلم أن كل كلمة قد زرعت شيئًا من الحكمة والأمل في نفوسهم، وأن الأمسيات لم تنته بعد.

وفي الليلة الثانية، اجتمعوا من جديد، كما جرت العادة، يستمعون إلى حكاياته التي لم تنته بعد. تلك الليالي أصبحت تقليدًا، وعمّ حمزة لا يكاد ينتظرها كما ينتظرها أصحابه.

كانوا يستمعون إلى قصصه المشوّقة، الممتزجة بالحِكم والحكايات الغريبة، بعضها يبدو حقيقيًا وبعضها يبدو أنه قد نُسج من وحي الخيال.

قال عمّ حمزة:

«سأحكي لكم الليلة حكاية عن الشقة رقم (٨) في الدور الرابع، تلك الشقة التي لم يُفهم ما يحدث فيها رغم مرور السنوات.»

كان يسكن الشقة رجل وزوجته، وفي ليلة من الليالي، دخل جاسر غرفة تُعرف بـ«حجرة الوجوه المتعددة». هناك، وقف أمام مرآة مُعلّق عليها عدد لا يُحصى من الأقنعة:

وجه مهرّج، ووجه طبيب، وقناع الحزين، والضاحك... وقناع أبيض، مفرّغ العينين، بلا ملامح... بلا روح.

كلما اقترب من القناع، شعر أنه لا يضعه فقط، بل يسكنه. وتوقف طويلًا أمام القناع الأبيض، حدّق فيه حتى شعر أن ملامحه ذابت خلف بياضٍ مخيف. تخيّل نفسه يخرج من الغرفة بهذا القناع، ويتقدّم نحو زوجته... فصرخت حين رأته، ارتجف جسدها، وسقطت أرضًا. توقّف قلبها.

ارتعش قلبه وابتعد مسرعًا عن القناع، ثم توقف أمام قناع الطبيب، حدّق فيه حتى شعر أن ملامحه ذابت خلف القناع.

وفجأة ظهر الطبيب، صوته هادئ وبارد كبحيرة ساكنة:

الطبيب: لماذا حاولتَ قتل زوجتك يا جاسر؟

ارتجفت شفتاه، وعيناه تجوبان فراغ الغرفة كمن يطارد ظلًا لا يراه سواه.

جاسر: لم أفعل... أقسم إنني لم أفعل. هي... هي من حاولت قتلي.

انحنى الطبيب نحوه قليلًا، وهمس:

الطبيب: ولماذا تقتلك؟

ابتلع جاسر ريقه، وهمس بصوت مكسور:

جاسر: لا أعرفها... كانت هناك... قالت لي: اقتُل حبيبتك...

تجمّد القلم بين أصابع الطبيب.

الطبيب: من هي؟

اهتزّت ملامح جاسر، وصار صوته أضعف من همسة:

جاسر: كانت تجلس بجواري... اقتربت من أذني... وتحدثت إليّ بصوت خافت: اقتُل زوجتك...

ساد صمت ليس عاديًا، صمتٌ يعجّ بأصواتٍ لا يسمعها سوى جاسر.

انتفض جاسر، وابتعد عن القناع مسرعًا، يتصبّب عرقًا، وقلبه يخفق بجنون. تمتم لنفسه بصوت مرتعش:

– هل... يمكن أن أفعل ذلك حقًا؟

رفع البوابون أكواب الشاي، بعضهم بصمت، وبعضهم وهو يحاول استيعاب ما سمعه. كانت الحكاية مخيفة، لكنها تركت في نفوسهم فضولًا لا يُقاوم. تساءلوا:

ماذا سيحكي لنا عمّ حمزة في الليلة القادمة؟ بينما هو، بابتسامة هادئة، جمع أكوابه، وعلم أن الأمسيات لم تنته بعد، وأن كل ليلة تحمل حكاية جديدة تثير الدهشة والخيال.

وفي الليلة الثالثة، اجتمع البوابون من جديد حول عمّ حمزة، وأكواب الشاي تفوح منها رائحة النعناع. كانت الأمسية هادئة، لكن عيون الجميع تلمع بالشوق لمعرفة الحكاية الجديدة.

قال عمّ حمزة، بصوت عميق يمزج الحكمة بالغموض:

«سأحكي لكم الليلة حكاية مختلفة... حكاية آدم.»

كانت صورة فتاة جميلة، رسمها آدم باحترافية عالية وبكل حب صادق. كلما نظر إليها، شعر أنها تنتمي إليه... لكنه لم يكن يتذكّر من هي، ولا من الذي رسمها.

كان ينام كل ليلة على أريكته، ويرى حلمًا واحدًا... حلمًا يشبه فيلمًا دقيقًا، مليئًا بالمشاهد والتفاصيل التي تكمل بعضها البعض. الغريب أن الحلم لا يتكرّر حرفيًا، بل تكتمل أحداثه في كل مرة من حيث توقّف، كأنه رسالة من ذكريات غائبة يحاول عقله أن يعيد ترتيبها.

في الحلم، كان آدم يرى نفسه يرسم الفتاة، مبتسمة، بكل حب وحنان. كان يشعر بكل لمسة فرشاة على القماش، بكل لون يسكن تفاصيل وجهها. يرى نفسه ينظر إليها نظرة امتنان وحب، كأن قلبه يعرفها قبل أن يعرفه عقله.

ثم يتحول المشهد فجأة... إلى صباح يوم مهم، إلى وجوه وأماكن يراها لأول مرة، كأنه احتفال أو حفلة زفاف، يشعر بأنها مألوفة جدًا، مأخوذة من قلبه قبل أن يعرف، من ذاكرة طمستها الصدمة.

ومع ذلك، ما إن يستيقظ، حتى يعود إلى وعيه دون أن يتذكّر شيئًا، رغم يقينه التام بأنه كان يعيش الحلم بكل تفاصيله، كأنه واقع عاشه بالفعل... لكنه لم يدر ما كان يعنيه.

حتى تلك الليلة... تشاجر مع أخته الصغرى، وفجأة رأى، للمرة الأولى، مشهدًا لم يتذكّره من قبل. مشهدٌ فاجأه بقسوة، حتى سقط مغشيًّا عليه. حملته أخته إلى

المشفى، وهناك بدأت ذاكرته تعود تدريجيًا... وبدأ يرى الحلم كاملًا، لا كصور مبعثرة، بل كفيلم يُعرض أمام عينيه.

وما اكتشفه كان الحقيقة المرعبة: الحلم لم يكن حلمًا... بل تسجيلًا دقيقًا ليوم عاشه، ثم محاه عقله من شدّة الصدمة. ذلك اليوم كان صباح وفاة أخته الكبرى... وكان يوم زفافها. وكان آدم قد قضى شهرًا كاملًا يرسم صورتها الأولى، يرسم كل تفصيله في وجهها بدقة وحنان، ليُهديها اللوحة في يوم عرسها. لكنها رحلت قبل أن تراها.

وضع آدم اللوحة في كوشة العرس، ووقف أمامها صامتًا، عاجزًا عن النطق... حتى فقد وعيه. ومنذ تلك اللحظة، فقد ذاكرته تمامًا، حتى إنه نسي أخته وكلّ ما كانت تمثّله في حياته. وعندما عادت إليه الذكريات دفعة واحدة... انهار. لم يستطع تجاوز الصدمة، وأُصيب بنوبة هلع شديدة... مات على أثرها.

جلس البوابون صامتين، يحدّقون في أكواب الشاي، وبعضهم يضع يده على قلبه، يتأمل مأساة آدم. كان الصمت ممتلئًا بالدهشة، بالرهبة، وبنوع من الحزن الصامت الذي يترك أثره في النفوس. وعمّ حمزة، بابتسامة هادئة، رفع رأسه وقال:

«كلُّ حكايةٍ، يا رفاقي، لها درس... بعضُ الأيام تصدمنا، وبعضُها يعلّمنا كيف نحتفظ بالحبّ والذكريات قبل أن تُمحى... وهذا ما يجعل لكلّ لحظة نعيشها قيمتها.»

* * * *

تأويلات لا تخيب

في تمام الساعة الثانية عشرة ليلًا، اهتزّ حيّ شبرا على دويّ طلقة نارية اخترقت صمت عمارة الأمل، كأنها إعلان فجّ عن نهاية لم يكن أحد يتوقعها. انطلق الصوت من شقّة الدكتور زياد توفيق، الطبيب المعروف في المنطقة والمقيم بالطابق الأرضي. لم تمضِ سوى دقائق حتى تجمهر الجيران أمام العمارة، تتعالى الهمسات وتتشابك التخمينات، بينما شوهد رجلٌ ملثّم يفرّ هاربًا عبر الأزقة المظلمة.

وبعد ساعات من التحريات، أعلنت الشرطة القبض عليه... كان هو ماهر.

قبل الحادث بأيام، كان ماهر قد طرق باب الدكتور زياد متوسلًا إليه أن يعالج حبيبته سالي، التي أصابها مرض نادر وخطير. وخلال فترة العلاج، نشأ بين الطبيب وسالي حبٌ صامت، لم يُصرَّح به، لكنه كان حاضرًا في النظرات، وفي الصمت الذي طال أكثر مما ينبغي.

في المقابل، لاحظت سالي أمرًا أكثر خطورة... ماهر لم يكن كما يبدو. كان يعاني اضطرابًا نفسيًا حادًا، يخفيه خلف وجه هادئ وصوت منخفض، خلف قناعٍ هشّ من الاتزان الزائف.

بعد القبض عليه، عُرض ماهر على طبيب نفسي. جلس شاحبًا على كرسيه، نظراته تتنقّل بلا استقرار بين الحائط والطبيب، وكأن عينيه تبحثان عن شخصٍ آخر غير موجود. كانت يداه ترتجفان رغم محاولته إخفاء ذلك، وصوته يخرج منخفضًا، متقطعًا، لكنه محمّل بغضبٍ مكبوت: "طفولتي... كانت جحيمًا... والدي هرب قبل أن أراه... لا شيء سوى فراغ... وسنوات الثانوية... كنت أقاتل وحدي..."

شدّ على قبضتيه بقوة، حتى كاد الجلد أن يبيض تحت الضغط، ثم انفجر فجأة، وقد تغيّرت ملامحه كليًا: "الدكتور زياد توفيق استغلها... حبيبتي... كانت تحبه... لكنها كانت لي! وأنا... أنا ما قدرتش أستحمل!"

شاهد الطبيب الاحمرار يتسلل إلى وجه ماهر، وعروق رقبته تنتفخ، فشعر بقلقٍ يتسرّب إلى صدره، لكنه تمسّك بهدوئه المهني. ومع ذلك، لم يستطع تجاهل التهديد الذي ارتجف في الهواء عندما انحنى ماهر للأمام وقال بصوتٍ خافت، لكنه قاتل: "كان لازم يموت... كان لازم يموت... وأنا... هقتلَك أنت كمان... أنت زيه..."

بعد هذا التهديد، تقرر على الفور إيداع ماهر مستشفى الأمراض النفسية والعقلية.

في أول ليلة له بالمشفى، رآه أحد المرضى—رجلٌ احتُجز هناك بعدما ظنه الجميع مجنونًا. لاحقًا فقط، اكتشف الأطباء أن كل تأويلاته للأحداث كانت تتحقق... بلا استثناء. اقترب الرجل من الطبيب النفسي، حدّق في الفراغ للحظة، ثم قال بنبرة واثقة خالية من أي تردد: "ماهر... سيموت."

تجمّد الطبيب في مكانه. حاول أن يبتسم، أن يتجاهل الكلمات، لكن شيئًا باردًا انزلق إلى قلبه رغمًا عنه.

وفي اليوم التالي... وُجد ماهر ميتًا في سريره. لا جروح. لا سموم. ولا سبب طبي واضح. وكأن قلبه... توقّف فجأة.

وقف الطبيب مذهولًا، تتردد في رأسه كلمات الرجل، ثقيلة، قاطعة، كأنها حُكمٌ لا يقبل الطعن: "ماهر... سيموت."

تمت

مع تحياتي الكاتبة رانا محمد صلاح

لمتابعة الكاتبة رانا محمد صلاح على الفيسبوك الأكونت الشخصي :

/https://www.facebook.com/share/1AM2LWDCxm

لمتابعة الصفحة العامة

/https://www.facebook.com/share/1GcVk7PSDj

لمتابعة دار أكاديمية الكاتب على الفيس بوك:

دار أكاديمية الكاتب للنشر الإلكتروني

لمتابعة أكاديمية الكاتب على التليجرام وحضور المحاضرات الشهرية المجانية:

أكاديمية الكاتب للتدريب والاستشارات

اللينك:

https://t.me/AlKatebAcademyforTraining2023